

د. أحمد خالد توفيق
مشروع القرن الثقافي
روايات مصرية للجيب
47
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com
الوحدة 731

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحــدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فــى القارة السوداء ، وســط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دوليــة لكن بطلكم الفقيــر المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عــادى جدًّا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك ــ كما قلنا ــ من العســير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًّا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعــه وأقصــه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليــط عجيــب من الطــب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد

جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

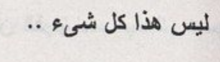
★ ★ ★

1 ـ غـــارة ..

هذه كانت البداية ، أما ما سبق ذلك فلا أهمية له ..

أنــت تــرى ذلــك الكــوخ الفقيــر المتداعى المصنوع من البامبــو .. تــرى الأم التى تحمــل طفــلاً على ذراعها ومن الواضح أن هناك طفــلاً فى أحشائها وطفــلاً يتمسك بثوبها فى لوعة ..

أنت ترى الموقد وفوقه ــ كالعادة ــ الأرز المسلوق .. لا شىء سوى الأرز المسلوق . ربما يضيفون له أعشابًا تشبه البرسيم على سبيل المرح . هناك بعض الشاى الأخضر فى براد متسخ ، وهناك دجاجة تعبث هنا وهناك ... هى المصدر الوحيد للبيض ، لهذا لن تذبح أبدًا إلا يوم تصاب بالعقم .. يمكنك أن تدرك من الجو أننا فى مكان ما فى جنوب شرق آسيا .. هل فيتنام ؟.. هل كمبوديا ؟



ليس هذا كل شىء ..



هناك فى الركن ذلك الرجل النحيل الذى يمكنك أن تعد ضلوعه .. لا ليس الضلوع .. يمكنك أن تعـد الأوردة التى تجرى بينها . معظم هؤلاء الفلاحين فى حالة جوع مزمنة ، لكن هذا الفلاح يعانى ما هو أكثر من الجوع . هاتان الشفتان المتشققتان والقشرة البيضاء التى تغلقهما والعين الحمراء الملتهبة اللامعة .. كل العيون اللامعة أكثر من اللازم تدل على الحمى . نحن لا نشترى سمكًا هنا حيث العين اللامعة تدل على الجودة ..

والزوجة تعرف سبب هذه الحمى .. السبب أن هناك مرضى آخرين فى أكواخ أخرى ..

★ ★ ★

هذا هو العام 1940 ..

ما زالت أعوام عدة تفصلنا عن نهاية الحرب العالمية الثانية ..

نحن فى نينجبو ، وهى مدينة صينية صغيرة تقع على الساحل جنوبى خليج هانجزو .. إنها اليوم مدينة سياحية جميلة ، لكن فى ذلك الوقت كانت أقرب لمجموعة من القرى ..

السكان فقراء راضون بحياتهم الصعبة ..

أعط الناس طعامًا يقيم أودهم ومسكنًا والحد الأدنى من الأمن ، وسوف يتحملون الحياة . لهذا كان هؤلاء الصينيون يعيشون .. لهذا كانوا يتحملون ..

لكن فى هذا الوقت بالذات كانت اليابان تمد مخالبها نحو الصين ، واليابان فى ذلك الوقت كانت أفعى آسيوية عملاقة أو تنينًا مخيفًا .. وكانت ميولها الاستعمارية لا تهمد أبدًا ، ولربما خطر لبعض الضباط الأمريكان أنها فعلاً كانت تحتاج لتلك العلقة النووية التى تلقتها فى هيروشيما . طبعًا لا نقر هذا ، لكن نؤكد أنها لم تكن دولة مسالمة وديعة .

فظائع اليابان ضـد الصـين لا تنتهى ، وخاصة ما حدث فى منشوريا ، ويمكنك أن تبحث فى النـت عن صـور (اغتصاب نانكينج) فقط بعد ما تبتلع قرصًا مهدئًا .

لكن اليابان كانت قد وجدت لعبة جديدة تجربها .. وهذه اللعبة ليست بالضبط مما تتحمله أعصاب الناس .

يجب أن نعترف بأن عسكريين يابانيين قليلين جدًا كانوا يعرفون ما يدور هنالك ، والسبب أن قسوة الإنسان لها سقف مهما حدث .. لكن من كانوا متورطين فى المشروع كانوا يزعمون أنهم يعملون فى أبحاث تنقية الماء .

ومن مكان ما تهدر محركات الطائرات اليابانية .. الطائرات التى تشـبه ألعاب الأطفال ، حتى لتشعر بأن مراوحها تدار بالأستك .. تهدر بينما يهرع الجنود الصفر الذين ارتدوا الخوذات والعوينات الواقية ، حتى بدوا كأنهم قردة غريبة الأطوار جاءت من الفضاء .. قردة بلا رحمة ..

تثب القردة فى الطائرات وتنطلق هذه نحو عنان السماء ...

فوووووووووووووووووه !

الطريق طويل من منشوريا إلى خليج هانجزو ..

الحمولة صعبة والتعامل معها عسير . هناك أكياس من المشمع تم غلقها بإحكام . اللحظة الخطرة هى لحظة فتح هذه الأكياس ..

تنحدر الطائرة مقتربة من الأرض أكثر فأكثر ..

يراها القرويون الصينيون ، وهم مندهشون لأنهم يعرفون أن هؤلاء هم اليابانيون أعداؤهم الطبيعيون .. لكن لماذا لا يلقون قنابل أو يطلقون الرصاص ؟

يمد الطيار اليابانى المساعد يده ويمزق الشريط اللاصق الذى يغلق الكيس الأول ، ثم يفتح نافذة الطائرة ويطوح الكيس من أعلى ..

قبل أن يسقط الكيس ليبلغ الأرض يتم فتح الكيس التالى ...

يهوى الكيس بسرعة .. ثم يفتحون الكيس الثالث ..

لم تنتظر البراغيث طويلاً داخل الكيس بل طارت فى الهواء .. كانت خفيفة الوزن فتصرفت بالضبط كأنها ذرات غبار وحلقت هنا وهناك ...

لكن قدرًا هائلاً منها هوى داخل الكيس ، وهرع بعض الأطفال إلى الكيس الذى سقط خلف حظيرة الخنازير ، وهم يأملون أن يجدوا فيه ما يؤكل ..

لكن بدا لهم الأمر غريبًا .. الكيس ملىء بالبراغيث لا أكثر ..

سرعان ما كانوا يفرون وهم يحكون أجسادهم بقوة ..

الكاهن (شواه ــ ين ــ تسى) المسن راقب المشهد وهو واقف حافى القدمين فى وحل حقل الأرز ، وكان يدرك أن هناك لعنة ما تهبط من السماء .. لا يعرف ما هى ولا سرها ، لكنه يدرك أن سقوط هذه الأكياس ينتهى دومًا برجال محمومين .

لا يمكن لرجل تخطى الستين من العمر أن يتوقع أى خير من اليابانيين ..

وبدأ يهرش بطنه بقوة وقد أدرك أن هناك الكثير من البراغيث فى سرواله . نزع القميص فظهرت ضلوعه البارزة الهشة .. نفضه جيدًا ثم أعاد ارتداءه وهو غارق فى التفكير ..

اليابانيون مصممون على تدميرنا جميعًا بلا رحمة ..

لا يعرف السبب ولا كيف يمكن منع هذا ؟ لقد صار اليابانيون أكبر من الحياة ذاتها وهم يحلقون كآلهة مجنحة فى السماء . ومن هناك يلقون أكياس الموت هذه ..

★ ★ ★

هذا هو العام 1940 ..

وفى ذلك الشهر توعك الكثير من سكان القرية وارتفعت حرارتهم . راحوا يقيئون واحمرت عيونهم ... وسعل منهم الكثير ..

وبعد فترة لاحظ المرضى أن هناك شيئًا يشبه البيضة عند أعلى الفخذ . تعلموا أنه لا يجب فتحه أبدًا لأن صديدًا كريه الرائحة يخرج منه ..

المريض يتدهور بقسوة عندما يظهر هذا الانتفاخ .. يتدهور ويفرغ معدته ويرتجف ، وتتحول حرارته إلى شىء مجنون كذيل السحلية المحتضرة .. ثم يسرى السم فى دمه ويحاول الكاهن أن يسقيه نقيع الأعشاب الصينية التقليدية .. لا جدوى طبعًا ...

لا توجد خدمات طبية فاليابانيون قاموا بنسف الجسر الوحيد الواصل للقرية ..

لم تبق سوى الأعشاب والصلوات وإشعال البخور ... البخور الذى لم يستطع أن يزيل رائحة الجثث العطنة ..

ولم يفهم أحد أنهم فئران تجارب .. فئران تجارب لتجربة بيولوجية غاية فى الخطر ، وتمثل لحظة الامتحان لأعوام من العمل الشاق فى المختبرات اليابانية . كان اليابانيون يلقون عليهم أكياسًا مليئة بالبراغيث والبراغيث تحمل بكتريا باستوريلا بستيس أو يرسينيا بستيس .. العصويات القاتلة شديدة الفتك ..

لم ينته هذا الفصل الشنيع من الحرب العالمية الثانية إلا وقد مات مائتا ألف صينى ....

الحقيقة أن البراغيث كانت تحمل بكتريا الطاعون ..

2 ـ اتركوا الثعبان ..

كانت الحرب العالمية الأولى أقذر حرب عرفتها البشرية من حيث عدم وجــود قواعد أخلاقية على الإطلاق ، وقد استعملت القوات الألمانية جرثومة الجمرة الخبيثة بحرية تامة عام 1916 مع الجيش الروسى . كما أصابوا الماشية فى عدة بقاع بداء الرعام Glanders .

استمرت الحرب البيولوجية وتزايدت الحاجة لها مع الحرب العالمية الثانية . من جديد عاد الجدرى يطل برأسه كحل فعال لإنهاء الصراع ، ودارت الفكرة فى رأس العلماء الأمريكيين والبريطانيين كثيرًا . لكن كان اليابانيون عن حق سادة الحرب البيولوجية فى الحرب العالمية الثانية والأعوام التى سبقتها .

★ ★ ★

سقطت القنبلتان الذريتان واستسلمت اليابان ..

محارب الساموراى البارع شديد الكبرياء ، قد خفض سيفه البتار وأسلمه لراعى البقر الأمريكى الذى يمضغ اللادن ويرقص على أغانى الروك .

كانت الصدمة القوية ، ولفترة لا بأس بها ظلت اليابان تترنح . لكن هذه الشعوب لا تظل فى خندق الهزائم مثلنا لكنها تخرج منه بسرعة ..

كان على اليابانيين أن يتعلمـوا أن يضغطـوا على أسنانهم ويصبروا ..

كـان عليهم أن يتحملوا الجنـود الأمريكان الذين ظهروا فى بلادهم بقواعدهم وأسلحتهم ولغتهم الغريبة ..

فى هذا الوقت بالضبط كان أحد القادة الأمريكان جالسًا فى غرفة مكتبه يدخن الغليون ويصغى للمذياع ، عندما جاءت سكرتيرته تخبره بأن ضابطًا شابًّا يبغى لقاءه ..

سمح له بالدخول .. وأتم بعض الأوراق ..

ثم رفع رأسه ببطء ليرى أمامه شابًّا نحيلاً يضع العوينات . له وجه لوحته الشمس مما يوحى بأنه حارب لفترة فى المحيط الهادى . ثيابه العسكرية غير مهندمة ، لكن من الواضح أنه شاب جاد يمكن أن تثق به ..

أدى الشاب التحية العسكرية وقال :

ـ « ميجور طبيب جورج ساندرز يا سيدى .. لقد وصلتك برقية تخبرك بقدومى .. »

وأخرج خطابًا وضعه أمام القائد ...

لم يكن القائد يعرف الفتى من قبل ، لكنه كان يعرف أن هناك اهتمامًا كبيرًا فى الوطن بهذه الزيارة ، وهكذا سمح للشاب بالجلوس وقدم له بعض المشروبات ثم سأله وهو يشعل الغليون :

ـ « قلت إنك طبيب .. ما هو اختصاصك ؟ »

هذه هى العادة لدى الناس .. لو وجد أنه طبيب باطنى فلسوف يتذكر آلام معدته .. لو وجد أنه طبيب مسالك بولية فلسوف يتذكر آلام التبول .. لكن الطبيب الشاب أخرسه قائلاً :

ـ « أنا مختص بالبكتريا .. »

هذا تخصص غير مفهوم وعلى الأرجح لا يمكن الاستفادة منه ، لذا أعاد القائد تصفح الأوراق التى يحملها الطبيب العسكرى وسأله :

ـ « طبيب مختص بالبكتريا مثل باستير ؟؟ هه ؟ »

ـ « باستير لم يكن طبيبًا .. كان كيميائيًا .. »

هذا التحذلق السخيف إذن ..

ــ « وبم يمكن أن أساعدك يا ميجور ؟ »

قال الطبيب الشاب وهو يجفف عرقه :

ــ « لديكم بعض الأسرى الذين لابد أن أقابلهم بشكل استثنائى .. أقابلهم قبل أن تنقلوهم إلى أى مكان .. »

قال القائد فى ملل :

ــ « نحن لن ننقل أحدًا لأى مكان .. هناك محاكمات ستدور هنا . أنت تعرف أن قسطًا هائلا من هؤلاء (الجابس)[*] سوف يتلقون عقابهم كمجرمى حرب .. إن رءوسًا كثيرة سوف تطير .. »

ــ « لهذا أريد أن أقابل بعض الأسماء قبل أن تتبعثر الحقائق ، وقبل أن يذهب هذا هنا وذاك هناك .. »

ثم أخرج من جيبه قائمة ناولها للقائد ، ومسح فمه وجلس ينتظر رد فعل الرجل ..

راح القائد يراجع الأسماء ثم غمغم :

(*) الاسم الذى يطلقه الأمريكان على اليابانيين ، وفيه درجة معينة من الإهانة .

ـ « كل هـذه الأسماء اليابانية تتشابه عنـدى .. ناشاهيرو يا جاكيما .. كلها تنويع على هذه النغمة .. لا تتوقع أننى أذكر من هو من ، لكننا سنعرض عليك قوائم الأسرى على كل حال .. ماذا تريد منهم بالضبط ؟ »

للمرة الأولى لمح القائد نظرة آمرة صارمة مخيفة فى عين الشاب .. كأنه هو الأعلى رتبة ، وقد كان هذا صحيحًا إلى حد ما إذا راعينا ما يحمله من توصيات .. قال الضابط الشاب :

ـ « للأسف لا يمكنك أن تسأل أسئلة يا سيدى .. الأمر مصنف عالى السرية .. »

لم يكن القائد مهتمًا على كل حال .. العالم يعج بالأسرار التى لو لاحقها المرء لما وجد وقتًا ليلتهم شطيرة خبز .. وعلى كل حال هو قد تعلم أن الناس تحب أن تبدو أخطر مما هى عليه فعلاً .. لذا قال :

ـ « هذا شأنك .. شأنى أنا أن أقودك إلى الأسرى .. »



★ ★ ★

فى الأسبوعين التاليين التقى الضابط الشـاب بعـدد كبير من الأسرى وأجـرى تحقيقات معهم بمعـونة مترجم أمريكى يجيد اليابانية ..

كان يقضى ساعات عدة فى الزنزانة الرطبة ، يشعل السجائر ويكتب .. بينما يجلس أمامه قائد تلو قائد من اليابانيين الذين كانوا رعب أمريكا منذ قليل ..

على أنه قضى وقتًا أطول من اللازم مع أسير معين . ولا أحد يعرف السبب ..

هذا الأسير رجل يابانى اسمه د . شيرو أيشى .. وهو نموذج الضابط اليابانى فى أذهاننا بقامته القصيرة ونظره المتدنى وشاربه وأسنانه البارزة ..

أمضى ساندرز وقتًا طويلاً جدًا مع شيرو هذا ...

والأمر الذى لا يعرفه الكثيرون هو أن شيرو إيشى تعاون معه جدًا . تعاون لأقصى حد ممكن لأنه عرف أنه ضائع .. بدا له بصيص نور خافت فى الأفق وقرر أن يركض نحوه بكل قوته ..

الحقيقة أنه كان محقًا ..

الميجور الأمريكى الشاب أجرى اتصاله مع الجنرال مكارثر قائد عمليات المحيط الهادى .. لا يعرف أحد ما دار بين الاثنين ، لكن يمكن تخيله ..

لابد أن جنرال مكارثر قال :

ــ « هذا سفاح ومجرم حرب .. لابد من إعدامه .. »

لكن الطبيب الشاب قال له :

ــ « هؤلاء اليابانيون يعلمون ما لا نعلم .. صدقنى يا جنرال .. إن قتل هذا الرجل يشفى النفس ويرضى شهوة الانتقام ، لكنه يضيع خبرات تراكمت عدة أعوام .. خبرات يمكنها أن تعطى الولايات المتحة قوة غير مسبوقة .. قوة تفوق القنبلة الذرية بمراحل .. »

هذه معضلة أخلاقية .. هل تريد القوة أم التفوق الأخلاقى والقصاص ؟



كان رأى العالم عمليًا جدًا وبسيطًا : الانتقام شهوة بدائية لن تفيد أمريكا فى شىء .. أبقوا على حياة شيرو أيشى ولن تندموا أبدًا .. شيرو أيشى ليس مجرد يابانى عادى .. إنه الرجل الذى أسس الوحدة 731 التى كانت تتظاهر بأن عملها تنقية مياه الشرب قرب منشوريا ، لكنها فى الواقع كانت تعمل فى دأب لتطوير الأسلحة البيولوجية (الجمرة ـ التولاريميا ـ الطاعون) .

إن بعض الثعابين مفيد جدًا وإبقاءه حيًا يفيد البشرية اكثر من قتله بمراحل .. هكذا يمكنك استخلاص الترياق بسهولة تامة .. وكان ساندرز يرى أن اليابانى ثعبان مفيد ...

لكن الجنرال كارثر يمقت اليابانيين ويفضل قتلهم ..

من الغريب أن من يريد الإبقاء على حياة اليابانى هو الطرف الأكثر قسوة وتوحشًا !

قال ساندرز وقد طفح به الكيل :

ـ « جنرال . هل تعرف أن اليابان كانت ستهاجم الولايات المتحدة قبل الاستسلام بشهر ؟.. »

ـ « تهاجمها ؟.. لا توجد قنابل ذرية لدى اليابان .. »

ـ « كانت ستستعمل ما هو أخطر .. عملية انتحارية .. طائرة محملة بعدوى الطاعون تسقط فى سان دييجو .. كان الطاعون سيجتاح الولايات المتحدة .. »

ارتجف الجنرال .. جرع ما بكأسه حتى ينسى الصورة المريعة :

ـ « أى شيطان رجيم فكر فى هذا ؟ »

ابتسم ساندرز وقال وهو يجمع أوراقه :

ـ « هو هذا الذى أطلب العفو عنه ... شيرو أيشى !!!.. »

★ ★ ★

بعد أعوام ..

ولاية ماريلاند الأمريكية ..

فى تلك البلدة الأمريكية الهادئة الصغيرة ، يرى الناس ذلك اليابانى قصير القامة ذا الشارب الرفيع والعوينات .. يسكن فى المنطقة ، وهو رجل وديع جدًا أميل للصمت والخجل . يمضى

أكثر الوقت فى بيته ، لكن سيارة سوداء غامضة تأتى صباحًا لتقله لعمله ..

عمله كما عرف المتلصصون هو تدريس اللغة اليابانية لبعض رجال الجيش .. هذا منطقى .

كان الأمريكان يخشون اليابانيين ولا يثقون فيهم ، لكن عقدة ذنب نشأت بعد الحرب جعلتهم مستعدين لقبول هذا الرجل والترحاب به ..

ما لا يعرفه الجيران ونعرفه نحن ، هو أن هذا الرجل الوديع هو شيرو أيشى نفسه ..

لقد حصل الميجورساندرز على عفو عنه ، وتم تهجيره إلى الولايات .. هناك كان عمله كما يعرفه الجميع هو الترجمة .. السبب أنه يجيد الإنجليزية ..

أما عمله الحقيقى فهو مساعدة الولايات المتحدة على امتلاك ترسانة حرب بيولوجية حقيقية .. وكان عمله هذا فى فورت دتريك ... فى ماريلاند .. إنه حجة فى تطوير الأسلحة البيولوجية

(الجمرة ـ التولاريميا ـ الطاعون) . ربما كان الأمر خارجًا عن سياق قصتنا ، لكن قصة ذلك العالم المجنون الذى كان يرسل رسائل الجمرة الخبيثة فى سبتمبر 2000 ويلصقها بالمسلمين .. هذا العالم جاء من ذات المختبر فى فورت دتريك . كأن تركة العقرب شيرو ظلت حية ومؤثرة .

لقد أنقذوا حياة الثعبان السام فقط كى يمنحهم سمًّا أكثر ..



3 ـ الموت فى بانجوك ..

فى العام 1995 كان العالم قد نسى خطر الحرب البيولوجية . تذكر أنه فى العام 1969 أصدر الرئيس الأمريكى نيكسون قرارًا رسميًا بمنع أى بحوث فى الحرب البيولوجية لأنها سلاح خطر ينقلب على الجميع ، وهو ما أدى لحرمان 2200 مستخدم من عملهم . وفى العام 1972 وقعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا ميثاقًا يحرم استعمال هذه الأدوية . نفس ما وعاه الزعيم عبد الناصر مبكرًا جدًّا عندما أوقف أبحاث الحرب البيولوجية فى مصر ، وقصفت المقاتلات المصرية جزيرة فى رأس بناس كانت تجرى عليها التجارب المصرية بما فيها من أجهزة وبكتريا والقردة ، فأزالتها من الوجود .

لكن هذا هو العام ذاته الذى صدر فيه مقال كريستوف ، وهو المقال الذى كشف الفضيحة : الولايات المتحدة عفت عن مجرم حرب يابانى كى تتعلم منه أساليب الحرب البيولوجية . والأسوأ أن هناك وثائق تؤكد أن شيرو أيشى أجرى تجارب عديدة على أسرى حرب أمريكيين . بالطبع كانت اليابان ستسقط طائرة محملة بالطاعون فوق سان دييجو ...

ثارت الصحافة وثار كثيرون ، لكن الولايات المتحدة اعتبرت الموضوع قضية أمن قومى وتجاهلت الرد ...

ومن جديد بدأت الأبخرة المتصاعدة من القصة تتلاشى وتزول ..

★ ★ ★

بعد أعوام ..

نحن الآن فى بانجـوك .. عاصمة تايلاند الساحرة الملوثة بالعرق ورائحة السمك النيئ والبخور الذى يحرق على صوت الأجراس والتراتيل فى ألف معبد بوذى ...

هذا الذى تراه هو فندق البرجين التوءمين ، فى باتوموان .. رونج موانج .. قرب معبد الرخام بالضبط ..

بالنسبة لنا لا يوجد فارق بين آسيوى وآخر ، لكن التايلانديين يعرفون طبعًا أن هذا الرجل الذى يمشى فى الطريق وهو يتلفت حوله كمخبول والذى بلل العرق جبينه ، هو يابانى ..

يدخل من مدخل الفندق العتيق ويمشى وسط اللوبى قوى الرائحة ، حتى يبلغ المصعد .. يحيى عاملة المصعد التى ترسم بيديها زهرة اللوتس كالعادة ويصعد إلى الطابق العاشر ..

اسمه (تاشيرو) .. يسهل عليك أن تستنتج أن هذا ليس اسمه ..

يدس البطاقة فى البـاب ويدخل ، وفى الحجرة لا ينسى أن يبحث فى الحمام جيدًا . يزيح الستار وينظر للشرفة كى يتأكد من عدم وجود شخص هناك ..

هذا رجل قلق بالتأكيد ...

يسهل أن تدرك أن أوراقه موضوعة بنظام معين .. نظام يدل على وسواس قهرى شديد .. هناك شعيرات مشدودة هنا وهناك ، وهذا يدل على أنه يتوقع أن يفتش أحدهم أوراقه أو يسرق منها شيئًا .. حيلة الشعر هذه قديمة لكنها ناجحة دائمًا ..

ينزع كل غطاء أباجورة كأنه يتوقع وجود مكبر صوت ، كما أنه ثبت منديلاً على أجهزة تحسس الدخان لأنه يخشى أن تكون إحداها كاميرا ..

هذه الغرفة يمكن أن تصورها وتضع لها عنوان (بارانويا) فى أى معرض تصوير ..

جلس تاشيرو فى النهاية على أريكة وفتح التلفزيون ، وراح يشاهد كوميديا الموقف لنصف ساعة .. فتح الثلاجة الصغيرة

وتناول زجاجة من الفودكا تتسع لكأسين ، ثم راح يشرب وهو لا يرفع عينيه عن الشاشة ...

لقد أمضى أسبوعًا فى تايلاند والرجل لم يظهر بعد . مشكلة هذا النوع من الصفقات أنك لا تعرف هل الزبون زبون فعلاً أم هو لص سيذبحك ويأخذ ما معك ..

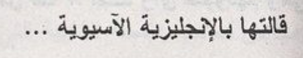
كان عليه أن يبقى بعض الضمانات لكن أى ضمانات ..؟.. لن يذهب لرجال الشرطة ويقول لهم : أنا أقوم بعملية غير مشروعة .. أرجو أن تحمونى ..

كان عليه أن ..... طاق طاق !

هناك من يدق الباب .. فى ساعة كهذه ؟

اتجه للباب ونظر فى العين الكاشفة بحذر .. فى ضوء الممر رأى تلك الفتاة التايلندية .. جميلة لكن ثيابها تدل على مهنتها .. كانت تنظر للعين الكاشفة مباشرة كأنها تراه بلا حاجز .. قالت وقد أدركت أن هناك من يقفَ خلف الباب :

ــ « أنا أقدم خدمات خاصة جدًا .. »



قالتها بالإنجليزية الآسيوية ...

إن البغاء مهنة شائعة جدًا فى تايلاند وجزء مهم من اقتصاد البلاد .. إنها مصيبة تلك البلاد التى تعتمد على السياحة من دون تنمية اقتصادية حقيقية . هذا سيناريو شهير جدًا ...

لكن الفتاة حمقاء لو حسبت أنها قادرة على الإيقاع بتاشيرو بهذه البساطة .. الأمر لا يحتاج لذكاء لمعرفة خطتها .. توشك على أن تعلق ورقة تقول : أنا سأغريك إلى أن أدخل غرفتك ثم أذبحك فى أول فرصـة .. من يدرى ؟.. ربما أستعمل الحقـن السامة فى العنق ..

قال بصوت غليظ :

ـ « انصرفى وإلا طلبت الشرطة .. »

عادت تكرر :

ـ « سيدى .. لم لا تجرب أولاً .. »

ـ « سوف أعد من واحد إلى خمسة ... أتوقع ألا يكون هناك أحد أمام باب الغرفة لدى انتهاء العد ، وإلا طلبت الشرطة حالاً .. »

تمنى لو كان معه سلاح نارى .. لكنه أجنبى فى بلد لا يتساهل رجال شرطته .. لا يريد مشاكل هنا .. لقـد رأى سجونهم وهى ليست أروع مكان فى العالم ...

سمع صوت خطوات تبتعد ..

كان يعرف أن تفتيش حجرته سهل جدًا لذا كان قد وضع الأوراق المهمة فعــلاً فى خزانة الفندق .. وقدر أنه لو جاء الرجل فسوف يسهل عليه أن يحضر له ما يريد فى اللوبى . لكنه كان يشعر بشــعور خاص فى مؤخرة عنقــه .. الليلة مهمة وحساسة .. لا يعرف ما سيحدث فيها لكنه مهم ..

الليلة هى الليلة .. هذا مؤكد ...

صب لنفسه كأسًا آخر عندما دق جرس الهاتف من جديد . رفع السماعة فجاء صوت هادئ واثق يقول :

ــ « تاشيرو ؟.. »

ــ « أنا هو .. »

قالها فى لهفة وقلبه يوشك على الخروج من فمه ، فقال الصوت :

ــ « أنا ميداس .. »

طبعًا يمكن لأى طفل أن يدرك أنها أسماء مستعارة .. الملك ميداس صاحب اللمسة الذهبية التى تحيل كل شىء ذهبًا ...

ــ « أنا بانتظارك فى لوبى الفندق .. »

ــ « هل جلبت معك الــ ... »

ــ « أنا بانتظارك فى لوبى الفندق .. »

كانت الثرثرة ممنوعة وعملاً أحمق ... هو قد نسى هذا ..

جففـ تاشيرو عرقه .. وألقى نظرة فاحصة على الغرفة ثم اتجه للباب وفتحه .

عندما خرج من الباب كان يتوقع أن تكون العملية أكثر تعقيدًا وأقل فظاظة .. كان يتوقع شيئًا مما يراه فى السينما ، لكن الأمر تم بسرعة وبطريقة عادية جدًا يمكن أن تحدث فى أى زقاق .. هناك رجل اصطدم به لا يعرف إلا الله من أين جاء ، وقبل أن يتكلم تاشيرو كان رجل آخر قد جاء من جهة أخرى ، وشعر كأن حشرة لدغته فى عنقه ...

كان هذا آخر شىء أدركه وهو بكامل قواه العقلية ..

بعد هذا ــ وبعد فترة انتقالية سريعة ــ وجد نفسه مكبل اليدين والقدمين والشفتين .. ثمة شريط لاصق عريض على فمه .. إنه راقد على فراش غرفته بالذات وهناك رجلان يفتشان الغرفة ويفتحان الخزانة ، ويقلبان ما فى الأدراج ..

كان مخه مضطربًا ضبابيًّا لكنه احتفظ بقدرة الملاحظة والاستنتاج ..

فى النهاية دنا منه أحد الرجلين وهو يلهث .. كان وسيمًا له وجه مربع قاس ، ويبدو أنه يصلح كبطل فيلم أمريكى ممتاز .. نظر له فى قسوة للحظات ثم قال :

ـ « أنت تعرف ما نبحث عنه .. هو ليس فى الغرفة .. تعرف أهمية هذا الشىء وتعرف أننا سننتزعه منك بالقوة ، لذا أنصحك ألا تجعل اللحظات التالية قاسية . .. »

كان بريطانيًّا كما هو واضح ... ليس أمريكيًّا كما خطر له أولاً ..

وكان يعرف كل شىء ...

قال البريطانى :

ـ « سوف ننزع الشريط اللاصق .. وأتوقع ألا تصرخ ... لن يسمعك أحد على كل حال ، لكن هذا سيجعل عذابك أكثر قسوة ووحشية .. هل تفهمنى ؟ »

امرأة قادمة من الحمام .. يبدو أنها كانت تفتش هناك .. من السهل أن تخمن أنها من كانت تطلب الدخول منذ قليل .. يصعب أن يتأكد وهو ملقى كالذبيحة على الفراش

قال لنفسه : أنا ميت .. لقد انتهى أمرى ..

ربما لو كان هؤلاء ملثمين لاطمأن نوعًا ، لكنهم يكشفون وجوهم بحرية تامة . معنى هذا أنه لن يكون هناك شهود بعد هذا ..

الواقع أنه لم يكن مخطئًا ..

★ ★ ★

ما وجده رجال الشرطة التايلنديون هو جثة السائح اليابانى الذى تقول أوراقه إنه رجل أعمال . لا أحد يعرف من قتله .. هناك دلائل على تفتيش الحجرة مرارًا ..

أما عن الجثة نفسها فكانت آثار التعذيب واضحة ، ولن أحكى تفاصيل ، لكن من فعل هذا كان محترفًا يعرف كيف يؤلم ضحيته . معنى هذا أنهم كانوا يريدون انتزاع سر منه . ومن الواضح أنه تكلم فى النهاية ..

أوراق مبعثرة فى كل مكان .. لكن يبدو أن الأوراق المهمة كانت فى خزانة أمانات الفندق .. لا أحد يعرف بالضبط ما أراده المعتدى ولا سبب كل هذا الحماس ..

قال النقيب (تاى فونج) :

ـ « مرحبًا بهؤلاء الغربيين بشرط أن يموتوا بعيدًا عن فنادقنا .. فلينتظروا حتى يغادروا الحدود ثم يموتوا .. »

لكنه كان يعرف أن هذا مستحيل . لسبب ما يحب الناس أن يموتوا فى تايلاند .. هذه قاعدة لها قوة القانون ...



4 ـ الليلة الموعودة ..

يبدو أننى تكلمت خارج الموضوع أكثر من اللازم .. ما شأننا نحن بما يحدث فى معتقل أمريكى فى اليابان عام 1942 أو فندق فى بانجوك فى هذا الوقت ؟.. إن الإطناب والاستطراد طبيعتان بشريتان مقيتتان ...

تلك كانت الليلة ..

أشياء كثيرة يجب أن يحكيها المرء ، لكن هناك أشياء أكثر يحاول أن يتحاشى تلويثها بالكلمات .

تلك كانت الليلة .. أذكر جلستنا أنا وبرنادت أمام الكمبيوتر لفترة طويلة نشاهد فيلمًا لجيم كارى . كان بسام قد أقرضه لى ، وقد قضينا الوقت نضحك حتى دمعت عينانا ، ثم نهضت برنادت فجلبت لنا بعض شطائر الهامبرجر فى طبق ومعها كوبان من اللبن ..

تلك كانت الليلة ، عندما انطفأ نور غرفتنا وعندما اندست بين ذراعى هشة ضعيفة تلهث بسبب الحمل ، وعندما كنا نسمع من

الأحراش المحيطة بوحدة سافارى عواء وحوش لا نعرف ما هى ولا كيف تبدو .. كانت تهمس :

ــ « أنا خائفة .. »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لا أدرى .. هذا يزيد الخوف خوفًا .. »

أعرف ما تعنيه . الخوف من شىء لا تراه ولا تعرفه .. إنه خوف لعين رهيب ، بينما لو كان معنا فى الغرفة ضبع هائج أو أسد منتصب شعر العنق لخفنا منه لكن بشكل منطقى أكثر ..

وهكذا نمنا .. حلمت بأشياء كثيرة .. حلمت بوجوه قابلتها منذ أعوام .. رأيت ميرا وسط الأفاعى ، ورأيت جيديون يرقص .. رأيت كليمنجارو .. سمعت دقات الطبول ..

ثم صحوت لأسمع الأنين ..

كانت الليلة هى الليلة ..

قلت لها : ماذا هنالك ؟



عضت على شفتها السفلى وقالت :

ــ « المولود قادم .. الرحم ينقبض .. »

هنا قمت بشىء أولى يقوم به الأطباء دومًا فى المواقف المماثلة : تحولت إلى حمار . لم تعد لى علاقة بالطب من قريب أو بعيد ولم أعد أذكر أى شىء عن الولادة ..

قلت لها وأنا أنظر للساعة :

ــ « هل تشعرين بالانقباضات ؟.. »

صمتت لحظة ثم قالت وهى تئن :

ــ « ها هى ذى ! .. »

واعتصرت كتفى بأناملها .. كانت قبضتها مؤلمة جدًا وأعتقد أنها مزقت جزءًا من نسيج المنامة . نظرت لعقارب الساعة .. الواحدة بعـد منتصف الليل . أى أننا فى الصباح .. وهذا هو سبب الخطأ الشـائع الـذى يوحى للنـاس أن كل الولادات تتم ليلاً ... الليل عنـد الناس هو الفتـرة بين غياب الضوء حتى عودته ، بينما هذا جغرافيًا يشمل قسطًا لا بأس به من النهار ..

عادت التقلصات .. ونظرت للساعة .. ثم انتظرت دقائق أخرى ..

تقلصات جديدة ..

لا شك فى أن الوقت منتظم بين تقلصات وأخرى .. يبدو أن الشىء حقيقى وأن الليلة هى الليلة ..

هكذا بدأت التحول إلى الطور الثانى .. تحولت من حمار إلى مجنون . انتزعت المنامة وارتديت المعطف .. وساعدتها على النهوض ، وأجريت بعض مكالمات مهمة ..

وبعد قليل كانت سيارة إسعاف الوحدة تقف أمام باب بيتنا .. أنت تعرف أننا نقيم فى بيت صغير منفصل داخل حدود سافارى .. بيت له حديقة صغيرة ويبعد عن البناية الرئيسة ..

الليلة هى الليلة ..

أنا وحدى فى مواجهة الأقدار ، غير مسلح .. بلا دروع ولا أى شىء .. لم أكن متأهبًا ولم يخطر ببالى قط أن تكون هذه أهم ليالى حياتى ..

كنت أرى الوجوه مذهولاً فلا أذكر اسمها .. هذه وجوه أعرفها لكن لا أعرف لها اسمًا .. نسيت . هذه الممرضة الهندية .. طبيب التخدير الألمانى .. العاملة البنغالية .. طبيبة النساء الصينية الظريفة الثرثارة التى لا يعرف أحد ماذا تقول .. ماذا كان اسمها ؟ مستحيل أن أتذكره الآن ..

وبرنادت تصرخ .. تتمسك بياقة معطفى وتجذبنى .. مستحيل أن تملك كل هذه القوة ..

طفلى قادم ... طفلى قادم ..

اللعاب يتجمد على شكل قشور على جانبى فمها .. علامة المعاناة الشهيرة .. ينصتون للجنين فى بطنها . الطبيبة الصينية الظريفة ـ اسمها ماى فاى لين .. تذكرت الآن ـ تفحصها من جديد ... تعود لتخبرنى أنه لابد من جراحة قيصرية . الحوض ضيق ولن يسمح بمرور الجنين .. بالطبع .. من المجنون الذى يصدق أن حوض برنادت يمكن أن يمر منه طفل ؟..

افعلوا أى شىء لكن أعيدوها حية ومعها طفلها الصغير ..

أنا طفل عاجز عن اتخاذ قرار .. لو ماتت برنادت أو حدث لها شىء لارتميت على أرض الممر أولول وألطم وأركل الأرض بقدمى .. لن أستطيع العودة للبيت . هى تعرف طريق البيت .. يدها الباردة الرقيقة الهشة تقودنى عبر الظلام وفى مجاهل أفريقيا التى عبرتها .. سوف أظل على الأرض ألوث الكافولة ولا أقدر على النهوض ...

سافارى .. سافارى هى التى عرفتنى على برنادت .. لو كان هذا هو الشىء الوحيد الذى قدمته لى سافارى فأنا سعيد راض ..

برنادت بالداخل .. أسمع صراخها .. أسمع عواءها ..

ثم يهدأ كل شىء فأعرف أنها نامت ..

أسرعى أيتها الطبيبة الصينية الظريفة .. ولكن تمهلى أرجوك .. لا أعرف كيف تسرعين وتتمهلين معًا ، لكنك بالتأكيد تعرفين كيف ..

لماذا تجرى هذه الممرضة ، ولماذا يبدو التوتر على هذا الطبيب ..؟.. هل تريد قول شىء لى ؟.. الويل لكم لو ماتت ..

سوف يسيل حزنى ليحرق كل شىء ويغمر كل شىء ... سوف تفيض أنهار الأرض ويغرق الأطفال فى كل صوب ...

ثم سمعت عواء طفل من بعيد ..

عواء طفل رضيع يجد نفسه فجأة خارج أدفأ موضع فى العالم .. يجد نفسه وقد طرد من بيته المخملى فلا عودة له . وظهر وجه الطبيبة الصينية من مكان ما وهى تنزع قفازيها الملوثين بالدم وتلهث .. تنزع قناعها ثم تقول لى ضاحكة بطريقة (الأجراس) إياها :

ـ « هى .. كله سليم .. كله سليم .. »

ومن مكان ما يظهر من يلكمنى على كتفى ضاحكًا ومن يربت على ظهرى ..

كانت قوتى على التحامل قد انتهت ، ولم يعد تحت سروالى رجلان .. إنه فارغ .. أنا أقف على قطعة قماش خاوية .. فى أى لحظة سوف أتهاوى للأرض ..

أنا أشعر بدوار ..

علاء عبد العظيم .. الفتى المشاغب القادم من شبرا قد صار أبًا .. ربما كانت لتكون المرة الثانية ، لكن الله لم يشأ ذلك فى أول مرة ..

علاء عبد العظيم .. الصبى المزعج قد صارت له طفلة مزعجة أخرى ..

كانت الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى ، وهرعت نحو المحفة التى تحمل برنادت فرحت ألثم يدها بلا توقف .. شاحبة واهنة ضعيفة تتدلى الخراطيم من ذراعها . مررت يدى فى شعرها الأشقر وحمدت الله .. كان من الممكن أن تكون هذه اللحظة نهايتى ..

ولمدة ساعات رحت أقضى الوقت بين غرفة برنادت وبين غرفة حديثى الولادة ، حيث كان ذلك الشىء الأحمر العارى الصغير يطلق السباب بلا توقف .. يشتمنا لأننا انتزعناه من بيته المخملى الدافئ ..

كنت أعرف وكانت برنادت تعرف أن الطفلة هى سارة ..

لماذا ؟.. لا أدرى متى قررنا ذلك ..



لكن الاسم كان أنيقًا وكان يقف بالضبط على الحدود المشتركة بين ثقافتين .. إنه ليس موربيل فأشعر أنا بغرابته .. وليس عواطف فتشعر هى بغرابته .. ما هو الاسم الذى ليس عواطف ولا موربيل ؟.. ساره طبعًا .. هل توجد اقتراحات أخرى ؟

★ ★ ★

أعرف هذه اللحظة وكنت أتمناها كثيرًا ..

أعرفها وأرى فيها سلامًا غريبًا ..

مشهد الأم المرهقة الشاحبة ــ والراضية ــ تضم ذلك الشىء الأحمر المغضن لصدرها فى حرام صوفى ، وتهبط من السيارة مستندة إلى زوجها ... تشعر بالفوز والظفر ..

هذه اللحظة لى أنا ..

سارة لى أنا ..

سوف أمطرها بالصور لأرسلها لأمى والأسرة ..

ما زلت أشعر بقلق وفقدان توازن هائلين . أنا بحاجة لعشر سنوات كى أفهم نفسى جيدًا وكى أربيها ، فكيف بتربية مخلوق آخر ؟.. وكيف أقود سفينة أسرة وسط أمواه البحر وأعاصيره ؟.. الحقيقة أن وراء مشاكستى و(حشريتى) الواضحة ، هناك قدر هائل من ضعف الثقة بالنفس .. لن أكون أبدًا مثل أبى العظيم أستاذ اللغة الفرنسية ورب الأسرة .. كنت طفلاً فى مملكته ويبدو أننى ما زلت .

فلنترك للأيام مهمة تربيتى .. مهمة جعلى أبًا من الآباء الذين كنا نسمع عنهم دومًا ..

اليوم سوف أستمتع بوضعى بلا قلق .. سوف أضم سارة الصغيرة لصدرى وأصغى لقرقرتها وأشم رائحة اللبن المختمر من فمها الصغير ، والويل لمن يحاول منعى من ذلك ..

شكرًا لك يا برنادت . أنت تجيدين انتقاء الهدايا التى تناسبنى ..



* * *

5 ـ متجر التنين ..

كانت إجازة شيلبى فى الولايات مملة بحق ، لكن الرجل يجيد الاستمتاع بحياته ويجيد تحويل لحظات الملل إلى تسلية ..

أسـتاذ طب المناطق الحـارة الأمريكى الصاخب المتبختر كطاووس Flamboyant كما يصفونه .. يمارس رياضة الهرولة فى شارع مريديان وهو يلبس سترة تدريب ذهبية اللون . شعره الأشيب الناعم ينحدر على عينه وهو يضع سماعة الإم بى 3 فى اذنه ويصغى للحن فيلم روكى الذى يجعله يتحمس للتدريب دومًا ..

شارع ميريديان هو شارع راق جدًا فى إنديانا بوليس ، ويقود فى طرفه الشمالى إلى ضواحى كارميل ..

كان شيلبى محظوظًا فى كل شىء فى حياته ما عدا الزواج . على كل حال يظل الطلاق والانفصال والزواج للمرة الثانية والثالثة نوعًا من أساليب الحيـاة الأمريكية . إنه ثرى جـدًا وبالنسبة لكثيرات هو شديد الوسامة برغم سنه المتقدمة . صحته ممتازة ويسهل لك لو رأيته جوارى أن تعتقد أننى الأقرب إلى القبر .

لم يكن له أحد فى الولايات سوى حشد من العلاقات النسائية القديمة . كان يدرك أن حياته صارت هناك فى الكاميرون بالفعل ، وفى ذعر فطن إلى أنه يحاول إنهاء الأيام سريعًا ليعود .. لماذا ؟

كان الآن يمشى فى الضاحية وهو يلهث محاولاً أن يستجمع أنفاسه عندما رأى تمثال التنين الذهبى ..

الثقافة الصينية فيها تنين دائمًا .. لابد من تنين فى كل شىء وأى شىء ..

عندما اقترب أكثر رأى معالم المتجر وتمثال التنين واللافتة التى كتب عليها بأحرف صينية شىء ما .. هناك عمودان مزخرفان بالخارج .. الفوانيس الورقية على المدخل .

كل شىء يوحى بمتجر عاديات صينى ..

كان يعشق الفن الصينى لذا مشى حتى نهاية الشارع المنحدر ، وراح يرقب المدخل .. جفف عرقه فى كمه واستخرج السماعة من أذنه ودنا أكثر . انفتح الباب فدوى صوت جرس فى مكان ما ..

المكان كان رطبًا ظليلاً .. وأراحه هذا ..

ومن بين الظلال رأى سيدة صينية عجوزًا .. تقليدية جدًا .. تبدو كأنها مرسومة .. كانت تتقدم لترى من القادم ..

حياها بهزة من رأسه لكنها لم تأت بأى حركة توحى بأنها رأته .. كانت كئيبة جدًا ..

فقط وقفت عند الكاونتر تراقبه .. وكانت لها ضفيرة شائبة تتدلى على كتفها .

مشى وسط العاديات محاذرًا أن يسقط شيئًا على الأرض .. كان يعرف تقاليد تلك الأماكن : اكسر .. ادفع .. لا مفر ..

راح يتفقد التنانين الخزفية المعتادة والقردة التى تسد آذانها أو عيونها .. أوعية تدخين الأفيون وفخاخ الأصابع التى يستحيل فكها .. مئات الأطباق والصحاف والآنية ...

فوانيس من الورق ومن الخزف ... غلايين لابد أنها تعود لأيام حرب الأفيون .. أما بوذا فكان فى كل مكان .. رقيقًا حالمًا أو سمينًا غليظًا تتدلى طبقات الشحم من بطنه ، أو راقدًا على جنبه بعد ما وجد الإجابة الصحيحة ..

كل شىء كان ساحرًا لكنه بالتأكيد لا يقدر على شراء كل شىء ..

شم رائحة عطرة فرفع عينه . كانت العجوز تشعل بعض البخور فى قطع فحم صغيرة تشبه القروش المجوفة . راحت تشم الدخان مغمضة العينين ..

كانت هناك مجموعات من سيوف ودروع لابد أن المانشو كانوا يلبسونها .

هنا توقف أمام ستة تماثيل صغيرة ..

يبدو أن هذه التماثيل تصور عظماء من الصينيين .. أنت تعرف هــذه الديانات الآسيوية الغامضة وتعــرف أن تذكرها مستحيل ، وعلى الأرجح فإن عبادة الأجداد تحتل قسطًا هائلاً منها ..

هذه التماثيل إذن تمثل عظماء صينيين أو أباطرة عاشوا فى الماضى .. ربما صاروا نوعًا من الأصنام أو أدوات التبرك . على كل حال كانت التماثيل تتشابه جدًا فى الحجم .. كل تمثال فى حجم علبة المياه الغازية تقريبًا .. من الخزف طبعًا . يمثل كل تمثال رجلاً صينيًا بثياب تقليدية فاخرة يتربع .. ووجوه الرجال متباينة تمامًا .. ما مــن وجــه كآخر .. هؤلاء ستة أشخاص فعلاً ..

أمسك بتمثال وتفحصه ..

العنق كان قابلاً للانفصال عن الجسد فى وقت ما ثم تم لحامه .. مادة لاصقة جعلت التمثال قطعة واحدة مجوفة على الأرجح ..

كانت قطعًا فاتنة ...

أشار إلى هذه المجموعة وسأل المرأة عن ثمنها ، فقالت بصوت ميت :

ــ « يمكنك أن تأخذها بمائتى دولار .. »

ــ « مئة فقط .. »

ــ « مئة وخمسين .. لن أتنازل عن مليم بعد ذلك .. »

لم يكن يحمل مالاً فى ثياب التدريب هذه ، لكن كانت معه بطاقة ائتمان .. وخطر له أن هذا مستحيل لأن السيدة لم تر بطاقة ائتمان فى حياتها حتمًا ..

لكن العجوز أخذت البطاقة بلا مناقشة ودستها فى جهاز قارئ البطاقات ، ثم طلبت منه أن يكتب رقمه السرى .. هذه عجوز صينية مثقفة جدًا كما هو واضح .. يبدو أنها تنتمى لجيل الثورة الثقافية وماو تسى تونج ..

سألها وهى تلف التماثيل فى مشمع من ذلك النوع الملىء بالفقاقيع البلاستيكية :

ــ « هل هناك قصة طريفة بصدد هذه التماثيل ؟ »

فى ملل قالت :

ــ « لها أهمية دينية . لكن التفاصيل معقدة ولا تهمك كثيرًا .. أنت تعرف الصين .. أرواح الأجداد .. أرواح أجداد .. مين تشوه وى .. تاى واشو .. »

أدرك أنها تحكى له أسماء التماثيل .. طبعًا لا شىء من هذا يهمه فعلاً . رآها تضع التماثيل فى علبة من الورق المقوى .. وتحيطها بالـــ (فوم) كى لا تتهشم .. فعلاً هى بارعة .. من الصعب أن تتأذى هذه التماثيل الرقيقة ، وكان يعرف أن الحسرة ستقتله لو تحطم واحد منها . أدرك أنه سيبقيها فى هذه اللفافة الواقية المحكمة إلى أن يصل إلى الكاميرون ..

هذه التماثيل لا مكان لها إلا فى بيته الحقيقى .. لا مكان لها هنا ..

واصل البحث فى المتجر ، لكنه كان قد استقر فعلاً ولم يعد مستعدًا لصرف مليم آخر .. فقط كان يأمل أن يجد شيئًا مذهلاً

لا يقدر على تركه .. آرثر شيلبى الرائع يجب أن تكون لديه أشياء مبهرة .. أشياء تحبس أنفاس من يراها ..

رباه !.. كم أن الحيـاة جميلة .. جميلة بشـكل لا يصدق ، والأهم أن تكون أنت بالذات آرثر شيلبى .

فى النهاية اتجه للباب حاملاً ذلك الكنز وقال لها :

ــ « شكرًا يا أماه .. »

نظرت له بعينيها الباردتين الميتتين اللتين تشعرانك بأن هناك طبقة دموع فوقهما ، وقالت :

ــ « ارفق بها . هذه تماثيل لا تستحق الكسر .. »

ــ « سأفعل ذلك .. »

قالها وهو ينطلق ليمشى فى شارع ميريديان .. هذه المرة بهدوء وثقة خشية أن يسقط منه هذا الحمل الثمين ..

6 ـ الحفـــل ..

اكتشفت اليوم أننى أقضى ساعات طويلة فى امتصاص أصبع يد الطفلة ، وهذا يحدث عندما أضع يدها الصغيرة على فمى لألثمها ثم اكتشف كم أن أصبعها رقيق جميل ، فألثمه ثم أمتصه لوقت طويل .. برنادت قالت إننى ما زلت فى المرحلة الفمية ، قلت لها إننى غير مهتم باسم ما أفعْله .. ما يهمنى هو أننى أحب هذه الصغيرة جدًا ...

لابد أن منظرى مضحك وأنا أحاول أن أرضعها باللبن الصناعى أو أبدل لها الكافولة . هذه ألغاز كونية لا تقدر عليها سوى النساء ...

أما برنادت فقد بدا أنها ستصمد .. لن يقتلها ذلك الجرح فى بطنها كما يبدو ..

كنت سعيدًا جدًا فى تلك الحقبة ، فلو مت لبدا لى هذا رائعًا .. هذه هى النهاية السعيدة البلهاء المكتملة التى تنتهى بها أفلامنا العربية القديمة .. سعادة مطلقة فلا تعاسة بعدها أبدًا !.. وكنت أنهى عملى فى الوحدة بسرعة ثم أختلس ساعات للذهاب إلى

الكومباوند (أ) لقضاء بعض ساعات . كنا نطلق على بيتنا اسم الفيلا أو كومباوند (أ) لنجعل الأمر شبيهًا بمعتقلات أسرى الحرب .. وهى تسمية موفقة بشدة لأن المكان خارج وحدة سافارى كان يذكرك نوعًا بصور معتقلات النازية ، لكن من دون حراس وأسلاك شائكة طبعًا ..

كنت أدرك أن حقبة جديدة فى حياتى قد بدأت .. لو أنصفنا لقلنا إن هذه هى اللحظة التى جئت أنا وبرنادت العالم من أجلها .. المبرر الوحيد لوجودك هو أن تأتى للعالم بمن هو أفضل منك .. فهل تكونين أفضل منى يا سارة ؟ أعتقد أن هذا ممكن ... سهل أن يكون أى إنسان أفضل منى ..

اليوم عدت للبيت .. وكانت برنادت تقف فى المطبخ الصغير تعد العشاء لنا . بعض الحساء .. لقد بدأت تتعلم بعض الوصفات الشرقية لكنى لا أطلبها كل يوم .. أحيانًا أقوم أنا بالطبخ ..

تناولت ملعقة ودسستها فى وعاء الحساء فصاحت مغضبة :

ــ « هذه العادة السيئة ..!... الملعقة أداة شخصية لا توضع فى الوعاء .. »

لكنى كنت قد تناولت رشفة فعلاً ... وأضفت :

ــ « لم أكن قط من خبراء المائدة . بالمناسبة لقد عاد آرثر شيلبى من الولايات منذ يومين .. »

كان شيلبى قد سافر منذ فترة وقد افتقدناه حقًا ..

الرجل مغرور ثرثار متبختر .. وهــذا يجعله مسليًا بشكل لا يوصف . لو كنت أنت تتذكر محمــد على كلاى الذى لم يكن يكف عن إطراء نفسه والجعجعة ، لكان من السهل أن تتذكر أن كل الناس كانوا يحبونه ويعشقون هذا الغرور .. لقد كان شيلبى من نفس الطراز ، ولا أنكر كذلك أنه بارع جدًا ويمنحك الكثير من العلم بمجرد أن يتكلم ..

لقد رأيته يأخذ عينات من الجلد لفحص (أنكوسيركا فولفيولاس) ويسحب السـائل الشـوكى مــن ظهــور المرضى المصابين بالتريبانوسوما .. تعلمت منه الكثير فعلاً ..

قالت برنادت :

ــ « هل عرف أننا رزقنا بطفلة ؟ »

ــ « تلقيت التهنئة منه .. لكنه لم يعطنى موعدًا للزيارة .. »



ــ « هذا خبر طيب .. »

هنا تصاعد بكاء الطفلة فهرعت بسرعة لأرى ما هنالك .

كما هى العادة يؤدى هذا التصرف إلى أن اكتشف أننى حمار وأننى لا أفقه سبب البكاء ، فأنتظر قدوم الساحر الأعظم ليعرف .. الأطفال يبكون لحشد من الأسباب منها الجوع والخوف وامتلاء الكافولة ، ولدغة برغوث صغير مختف فى مكان ما .. القائمة طويلة ولا يمكنك أن تخمـن .. فقـط دع الساحر الأعظم يعرف بنفسه ...

هكذا أحاول محاولات بلهاء ، ثم تصل برنادت فى ثقة فتلقى نظرة سريعة تدرك معها ما هنالك .. هناك مغص كما هو واضح .. لاحظ أنها طبيبة أطفال كذلك ..

كل هذا رائع كما ترى ...

★ ★ ★

وفى المساء بدأ الزائرون يصلون ..

هناك حشد من الجنسيات وبو غطاس التونسى العزيز .. كلهم من الشباب ولا أعتقد أنك تعرف معظمهم ..

جلسوا فى الصالة الضيقة وقد جاء كل منهم بهدية بسيطة للمولود . البعض جاء بسيجار لى أو جوارب للمولود .. طبعًا لن أفعل شيئًا بالسيجار سوى أن أهديه للأب التالى ..

قدمت لهم الكولا مع الكعك الذى أعدته برنادت من قبل ، وشكرتهم كثيـرًا .. بينما كـان هنـاك طوفان ظريف مـن اللغة الفرنسية والإنجليزية يحلق فى كل مكان . هناك طبيب ألمانى شاب تطوع بأن يعزف على الكمان الصغير الذى يحمله ، واختار مقطوعة البوليرو فصاحبته طبيبة إيطالية بالدندنة على النغمة ...

حاولوا إقناعى بالرقص لكنى أصررت على الرفض .. ثم قررت أن أرقص بغباء وبلا رشاقة ، مما أقنعهم بألا يحاولوا معى ثانية ..

أما برنادت فجلست وقد ضمت المولودة إلى صدرها وراحت تبتسم تلك البسمة المشرقة التى تميز الأمهات .. بسمة ريانة دافئة تحمل سر الكون كله ..

دق الجرس فذهبت لأفتحه وأنا مستمر فى الرقص ، ففوجئت بأن القـادم هـو (جيديون) خبيـر الباثولوجى المسن وملك

المشرحة . هذا اليهودى ليس ودودًا ومن الصعب أن يجامل ، لهذا بدا لى الأمر غريبًا .. إن الأشخاص الذين لا يجاملون ولا يضحكون يكونون ساحرين جدًا عندما يغيرون عاداتهم تلك ..

كان قد جلب لى هدية .. أرجو ألا تكون طحال جثة ..

ثم حيانا وجلس على أريكة . الحقيقة أن المكان تحول إلى حافلة مزدحمة من حفلاتنا فى مصر .. لا يمكنك أن تتحرك لحظة دون أن تصطدم بشىء أو أحد ، ورحت آمل فى صمت أن يخجل أحدهم وينصرف .. لابد من إخلاء بعض الأماكن ..

بالطبع كان أثقل الضيوف طرًا هو جيديون . لم أستطع أن أكون على راحتى فى وجود شخص له هذا الوزن وفى هذه السن وبهذه القيمة العلمية .. دعك من نظراته الصارمة . إنه يلعب دور الضمير فى الجلسة ومن الواضح أن أحدًا لن يكون على سجيته أبدًا . لحسن الحظ أنه مشغول دومًا وسوف ينصرف بسرعة ..

لم يأت بارتلييه أو باركر وإلا لدمروا الأمسية أو كما نقول نحن المصريين (حيقفلوها) بتشديد الفاء ..

جلست على طرف المقعد جوار جيديون وقلت فى تهذيب :

ــ « هذه الزيارة تسرنى جدًا يا بروفسور .. »

ابتسم تلك البسمة التى توشك على تشقيق أرضية وجهه ، وضاقت عيناه أكثر ثم تحسس السكسوكة المتدلية من ذقنه .. يطلقون عليها (الشيفو) لأنها تجعل صاحبها يشبه الجدى . قال لى :

ــ « أنت سعيد الحظ فى الحب أيها الشاب .. »

ــ « أشكرك .. أعرف هذا .. »

ــ « لهذا أقدم لك هدية صغيرة أخرى .. »

وقبل أن أفهم أو أتوقع شرًا طارت قبضته الغليظة كالقذيفة نحو ذقنى ...

طاخ !



7 ـ لغـــزان ..

قال لى بارتلييه وهو يلتهم شطيرة من عشائه :

ــ « من حقك اتخاذ ما تريد من إجراءات ، لكنى أحاول أن أرأب الصدع .. عملى أن أعيد كل شىء كما كان .. »

تحسست ذقنى التى كادت تتحطم .. وحركت فكى مرتين لأتأكد من أنه لم ينخلع وقلت :

ــ « قبضته قوية جدًّا .. هذا شيخ لم يفقد شيئًا من عنفوانه السابق .. »

ثم أضفت :

ــ « أى .. »

ثم أضفت :

ــ « هل قدم لك أى تفسير ؟ »

ــ « لم يفعل .. إننا جميعًا نمر بلحظات من الجنون الوقتى وعلى الآخرين أن يفهموا ذلك .. »

قلت فى غيظ :

ـ « مع احترامى يا سيدى لو أننى نهضت الآن فهشمت ذقنك ، فلتثق أنك لن تبدى هذا التفهم أبدًا .. سوف تلقى بى فى غياهب السجن .. »

★ ★ ★

هكذا كان الحال عندما سقطت على الأرض ..

انسكبت عدة علب من المياه الغازية فرحت أسبح فى بحيرة من الفقاقيع .. وبدا أن جيديون ينوى توجيه المزيد لى لولا أن الضيوف أمسكوا به ..

كانت النساء يصرخن والرجال لا يفهمون .. أما أنا فكان فكى يؤلمنى بعنف مع عدم فهم تام لما يحدث . أعرف أن الرجل غريب الأطوار ، لكن غرباء الأطوار لا يذهبون للناس فى بيوتهم ليضربوهم وهم يحتفلون بميلاد أطفالهم ..

أتراني أهنته من حيث لا أدرى ؟.. ربما كان الجلوس على طرف المقعد عادة يهودية سيئة أو تخرق قوانين التلمود ..

كان هناك ينظر لى وقد أحاط به الأطباء فبدا كثور غاضب ينوى الفتك بى .. فقط اتركوه وصيحوا (أوليه) .. سوف ينقض على ليمزقنى بقرنيه ..

كان هناك الكثير من الصخب ونهضت برنادت لتجثو جوارى على الأرض ، وراحت تربت على كتفى :

ـ « هل أنت بخير ؟.. هل آذاك هذا المجنون ؟ »

وكانت تلك هى المشكلة .. جيديون ليس مجنونًا .. لا أعرف تفسيرًا ..

رأيته يسترخى قليلاً .. يهدأ ..

تراخت الأيدى المحيطة به ..

قال فى صوت ثابت كأنه لم يفعل أى شىء :

ـ « أعتذر لأى سوء تفاهم أيها الشاب .. اهنئك على المولود الجديد !.. »

هنا كان المحيطون فى حالة ذهول تامة ..

ورأيت جيديون يتجه للباب فى بطء ، وقد انحدر كتفاه كأن رأسه على قمة جبل .. الانطباع الذى غمرنى هو أنه بالفعل لا يعرف لماذا فعل ذلك . هل تريد رأيًا آخر ؟.. أعتقد أنه أصلاً لا يعرف أنه فعل ذلك ..

يبدو أن علم الباثولوجى يقود للمرء للجنون مع الوقت .. مشاهدة كل هذه الأورام تحت المجهر .. لابد أن هذا يغير شخصيتك ..

والأهم تشريح كل هذه الجثث ... لابد أن الرجل قد احترق فى النهاية ..

★ ★ ★

كانت أول نظرية طرحها بارتلييه هى : هل جيديون يحب برنادت وأنت انتزعتها منه ؟

نظرية معقولة جدًا لو أخذنا فى الاعتبار آخر عبارات قالها لى .. هذه كلمات يقولها عاشق لرجل انتزع منه حبيبته ، لكن تاريخ

جيديون كله أمامنا .. لم يخطر له ولم يحاول ولم يعرف عنه أى ميل نحو برنادت .. دعك من أنها فى سن حفيدته ..

لا أميل لهذا الرأى بتاتًا برغم أنه التفسير العقلانى الوحيد للأسف ..

لكن برنادت كانت تميل لهذا الرأى كذلك ..

سألتها فى حذر :

ــ « لدى النساء رادار حساس يخبرهن بوجود من يميل لهن .. فهل هذا الرادار لديك قد التقط شيئًا ؟ »

قالت فى صدق :

ــ « بتاتًا . لكنى أبحث عن أى تفسير .. »

ومدت يدها تفتح اللفـافة التى جلبهـا جيديون كهدية .. هل هى قنبلة ؟.. لفـافة داخـل لفافة .. فى النهـاية وجدت ربطة عنق قبيحة جـدًا تناسب ذوقه . لا شىء يدل على ما كان ينوى عمله ..

طلب المدير جيديون ليسأله .. لم أعرف ما دار بينهما فى تلك الجلسة ، لكن كان لدى عدد هائل من الشهود لو أردت ان أحدث جلبة . أعتقد أن جيديون قال إنه كان مرهقًا متوترًا وإنه مستعد للاعتذار لى فى أى وقت ..

ثم أن المدير استدعانى وقال لى إن بوسعى تحريك دعوى قضائية ضد جيديون ويمكن أن أسبب له مشاكل كبرى إذا أردت .. لكن هل أريد هذا حقًا ؟

بصراحة .. لا ..

تحسست ذقنى ثم قلت :

ـ « بالطبع لا .. البروفسور جيديون علامة مهمة من علامات وحدة سافارى منذ جئت هنا أول مرة ، وقد تعلمت منه الكثير .. الحقيقة أن رصيده من الذكريات والأفضال يسمح له بأن يفعل هذا وأتجاوز عنه .. أعتقد أن ما أكسبه من التنازل أهم بكثير مما أكسبه من التشبث بالانتقام .. »

ـ « إذن هو التسامح .. »



ـ « لنقل إنه عدم الرغبة فى إحداث ضوضاء إذا كان من الممكن منع ذلك .. »

وقع الملف الذى أمامه وأغلقه ثم قال لى :

ـ « كن حذرًا .. أنت مشاغب وتجلب المتاعب دومًا .. »

كدت أجن من الغيظ .. أنا مشاغب دائمًا حتى عندما أتلقى اللكمات فى حفل ميلاد ابنتى .. ليكن يا سيدى ... أعدك بالتعقل ..

* * *

فرغ عامل المصعد الكاميرونى (لازار) من نقل المحفة خارج المصعد ..

هنا رأى طبيبًا قادمًا فى الردهة يحاول اللحاق بالمصعد ، وكان يعرفه .. إنه الطبيب اليابانى (ماوازاكى) طبيب العيون ... حياه بهزة رأس ثم فتح باب المصعد ..

كانت ساعة متأخرة من الليل ، لذا اندهش من وجود الطبيب هنا والآن .. قسم العيون ليس هنا على كل حال ..

قال الطبيب اليابانى دون أن ينظر :

ـ « الطابق الثانى .. »

هز الرجل رأسه وضغط على باب المصعد لينغلق ..

هنا لاحظ شيئًا غريبًا .. فى الضوء الخافت القادم من أعلى المصعد رأى الطبيب اليابانى المهذب الرصين يرسم وجوهًا مضحكة بوجهه .. وجوهًا كالتى يرسمها صبى ليخيف فتاة .. تارة يمط أنفه وتارة يكشر عن أسنانه ثم يقوم بتحريك حاجب واحد .. هذا غريب .

لابد أنه ثمل .. قالها العامل لنفسه وابتلع ريقه .. من الأفضل ألا يعلق ..

لكن الطبيب اليابانى دنا من العامل ، وقال شيئًا باليابانية ..

ثم أنه أمسك بكتفيه وراح يضرب رأسه بقوة وعنف فى جدار المصعد .. لم يكن العامل ضعيفًا لكن المفاجأة وسرعة الضربات جعلت رأسه تضرب الجدار بسهولة تامة ..

أدرك أن رأسه سيتهشم لو استمر الأمر . هكذا مد أصبعيه وغرسهما فى عين اليابانى ...

لكن اليابانى مد يده ليمنع الإصبعين بتلك الحركة المعروفة فى أفلام الكونج فو ، وكما يحدث فى تلك الأفلام أيضًا تراجع خطوة ثم وثب فى الهواء ليدفن مقدمة حذائه فى بطن العامل . وقبل أن ينهض هذا من فرط الألم كان قـد هـوى على عنقه من الخلف بسيف يد ..

هنا كان الباب قد انفتح ..

وأمام الباب كانت ممرضة كاميرونية تصرخ وهى ترى العامل على الأرض والطبيب يجهز عليه ..

استجمع اليابانى أعصابه ولملم معطفه .. نظر لها نظرة زائغة لا معنى لها ، ثم ابتعد فى تؤدة عبر الردهة كأنه لم يفعل أى شىء ..

8 ـ آمـوك ؟

فى الأيام التالية انشغلت وحدة سافارى بالثرثرة حول أحداث العنف هذه ..

لم يستطع أحد فهم ما يحدث ، وإن لم يربط أحد بين ما فعله جيديون وما فعله الطبيب اليابانى .. الناس تجن فى كل مكان ، وأنت تعرف ما يحدث من حين لآخر فى المجتمع الأمريكى عندما يحمل هذا الطالب أو ذاك بندقية آلية يفرغها فى زملاء المدرسة . يطلقون على هـذا اسم Amok وهى لفظة من الملايو تعنى هياج الفيلة غير المبرر .. إذن من حق موظفى سافارى أن يجنوا ويوجهوا اللكمات .

لكن المدير وباركر ظلا قلقين . وخطر لبارتلييه أن لحظة الجنون العظمى ليست ببعيدة .. من يدريك أن هذا الموظف أو ذاك لن يحمل بندقية آلية ويطلق الرصاص على أفراد الوحدة ؟ فيما بعد عرفت أن هـذه المحـادثة دارت بين المدير وباركر مساعده الزنيم ... .



تساءل باركر :

ـ « هل رجال سافارى يمرون بتوتر زائد ؟.. »

قال المدير :

ـ « لا .. على قدر علمنا .. »

فتح باركر الملف الذى يحمله وراح يقرأ منه نتائج التحقيق ..

ـ « الطبيب اليابانى يعتذر بشدة عما اقترفه ولا يعرف كيف فعل ذلك .. هذا كل شىء .. الطبيب الذى فحصه لم يجد أى علامات تشير لوجود عقار مخدر . يبدو فعلاً أنه فعل ذلك فى لحظة شبيهة بالتنويم المغناطيسى .. »

ـ « ومن الذى نومه ؟ »

لقد احتاج بارتلييه لقوة أعصاب شديدة عندما أوقظوه من النوم فى تلك الساعة ، وهناك فى قسم الطوارئ وجد العامل الكاميرونى لازار وقد امتلأ بالكدمات ، وكان هناك شرخ فى مؤخرة الجمجمة . يبدو أن اليابانى كان جادًا .. لم يكن يمزح .. لو لم تظهر تلك الممرضة لكانا يفحصان الجثة فى المشرحة ..

ـ « يبدو أن الطبيب اليابانى لاعب (كارا ـ تى) بارع .. »

ـ « كلهم كذلك .. »

قال باركر فى عدائية كعادته :

ــ « أعتقد أنها جريمة كراهية عنصرية . لا شك فى هذا .. العامل أسود البشرة والآخر ... ... »

قال بارتلييه ضاحكًا :

ــ « أصفر !... لسنا فى الجنوب الأمريكى هنا فتعقل .. لم أسمع أن اليابانيين يمارسون الجرائم العنصرية .. على الأقل فى عصرنا هذا .. »

ضرب باركر قبضته فى كفه وقال كأنه يبصق :

ــ « على كل حـــال لن ننتظر تفسيرات . ســـوف ننهى تعاقد اليابانى .. »

ــ « أفضل الانتظار حتى نفهم أكثر .. لقد كان يتصرف بطريقة غريبة . كأنه بالفعل كان تحت التنويم المغناطيسى .. »

قال باركر :

ــ « كما تشاء يا موريس .. لكن أرى ألا يمارس عمله لفترة إلى أن نعرف ما يحدث . لن نجازف بأن يدخل غرفة العمليات ويجرى جراحة ، فينتزع بالمبضع أول عين يراها .. حدثنى وقتها عن التنويم المغناطيسى .. »

ــ « لا بأس . ربما كان هذا تصرفًا حكيمًا .. »

ثم أن بارتلييه تحسس بطنه العملاق وذقنه المزدوجة .. كان متعبًا فعلاً .. أرهقه طول العمل وأرهقته السمنة والمسئوليات .. بالفعل كان يقود (بلدوزر) شديد الضخامة هو جسده .. ويقوده فى مناطق وعرة شديدة الخطر ...

قال لباركر :

ــ « أتمنى أن أستطيع التقاعد .. لقد سئمت هذه المهنة ... مشاكلها كثيرة جدًّا .. »

قال باركر بضحكته السمجة :

ــ « ليحفظنا الله من ذلك .. أنت تعرف أنهم يكرهوننى كالجحيم .. ما ستفعله أنك ستجعلهم تحت إمرة الشيطان ذاته . سوف يستقيل كثيرون من الوحدة لو صرت أنا المدير .. »

كان بارتلييه يعرف هذا جيدًا .. ويمارس نوعًا من اللذة الخبيثة نعرفها فى مصر باســم (يا ناكر خيرى .. بكره تعرف زمانى من زمان غيرى) .. إذا كنتم لا تحبون إدارتى فلسوف يأتيكم من يحيل حياتكم جحيمًا .. سوف تكتشفون وقتها كم أنا رائع ..

وكان يعرف أن باركر قادر على أن يجعل هذه الوحدة أبغض مكان على ظهر الأرض ، فهذا رجل لا يجد متعته إلا فى جعل الآخرين لا يشعرون بالراحــة .. رجل يعتقـد أن إشعار الناس بأنهم فشلة أجدى وأفضل من تشجيعهم . لهذا كان الجراح يجرى جراحة معقدة للمرة الأولى فى العالم ، فيكون رأى باركر هو : لكن المريض مات .. أليس كذلك ؟ »

وعندما يعمل أحد الأطباء المقيمين لدرجة أن يفقد الوعى ، فإن باركر يقــول فى اشمئزاز : « هــؤلاء المدللون هم أكياس قمامة تطيرها الريح . لم يعتادوا العمل الشاق لذا يفقدون وعيهم سريعًا .. دع الواحد منهم يعمل عشر دقائق إضافية ولسوف تقوم بإجراءات ترحيل جثمانه إلى وطنه .. »

كان المدير يفكر فى هذا ويفكر فى كل ما حدث .. هل هو آموك فعلاً ؟..

ما الذى ستأتى به الأيام ؟





يبدو أن أطباء العيون فيهم هشاشة معينة

كانت هذه عيادة أمراض العيون ، وكـان الإسرائيلى اللعين أبراهام ليفى ـ نعـم هو لم يمت بعـد ـ منهمكًا فى إزالة (خالازيون) من عين مريضة سمراء ..

إن أمور العيادة مستقرة برغم الكارثة التى حلت بها بعد وفاة د. سيمون مولنسار بمرض الإيدز .. هذه كانت خسارة لا تنسى ولم يستطع أحد التكيف معها بعـد .. لم يكن الدكتور (شافيز) الأسبانى موجودًا اليوم .. إنه فى إجازة فى بلده ..

العين مفتوحة بمباعد الجفون والمبضع فى يده .. وهو يكتم أنفاسه حتى لا تهتز يده ..

« لن نجازف بأن يدخل غرفة العمليات ويجرى جراحة ، فينتزع بالمبضع أول عين يراها .. »

فجأة راحت يده ترتجف بلا توقف .. تصلب وأخذ نفسًا عميقًا لكن الرجفة عادت ..

بدا كأنه ينزلق إلى حفرة عميقة ..

بثياب الجراحة نهض مسرعًا .. انتزع النظارة عن عينيه ثم ركض إلى ركن الغرفة ، وبدا كأن ثعبانًا قد احتل رأسه .. كأنه

يحاول أن يهشم هذا الثعبان بطريقة بسيطة جدًّا .. راح يضرب رأسه بكل قوة فى الجدار مرارًا وتكرارًا ..

كان يعوى بلا انقطاع ... وسال الدم ليغـرق الجـدار ويبلل أشياء كثيرة . ثم انطلق ليضرب جدارًا آخر بنفس العنف . يمكنك أن تتخيل تعبير وجه الممرضات الباكستانيات اللاتى أصابهن الهلع .. لو كنت أنا موجودًا لقلت لك إنه مشهد رائع ولطلبت المزيد منه . إسرائيلى يهشم رأسه فى جدار .. هذا ممتع جدًّا .. كنت سأطلب مقعدًا أماميًّا وطبقًا مليئًا بالفول السودانى واللب ، لكن للأسف .. المرء لا يحضر كل المشاهد المسلية التى تحدث فى هذا الكون ..

كاد الموقف يستمر وبدا أن رأس الطبيب توشك على التحول إلى جذر لفت داسته سيارة مسرعة ، لولا أن اقتحم المكان ممرضان وقيد كل منهما ذراعه وجراه بعيدًا ..

يَبدو أن طاقة العنف لديه قد تلاشت أو أنه أصيب بارتجاج مخ ، لأنه تهاوى وفقد وعيه لحسن حظهما وسوء حظى ..

نقلاه إلى قسم الطوارئ ، وهناك اكتشف الأطباء أنه مصاب بارتجاج مخى وتم نقله إلى قسم الأمراض العصبية تحت المراقبة ، بعد عمل عدة أشعات على الرأس طبعًا ..

الحقيقة أن تفسير ما قام به كان غامضًا .. هذه أفعال يقوم بها المرء بعد أن يرتطم رأسه وليس قبل ذلك .. هناك تشخيص اسمه (ما بعـد الارتجاج) لكن يبـدو أن ليفى العبقرى ابتكر تشخيصًا جديدًا اسمه (ما قبل الارتجاج) .

ومن جديد تساءل الجميع ..

هل هذا آموك ؟

9 ــ عملية تنظيف ..

وقعت الأحداث التالية قبل هذا بأيام :

عاد آرثر شلبى من الولايات إلى وحدة سافارى . كان يعرف أنه سيمضى أيامًا معدودات قبل أن تستدعيه منظمة الصحة العالمية لمعاينة تفاقم واضح للملاريا فى الكونغو ... أنت تعرف أن الرجل خبير مرموق ويتقاضى أموالاً مرموقة ، دعك من أن ثقته الزائدة بالنفس تقنع الجميع أنه على حق .. أحيانًا أعتقد أن الأوبئة تنخدع بثقته هذه وتقرر أن تزول !

يسكن شيلبى فى فيلا فاخرة من طابقين ، كما لابد أننى شرحت لك .. أنت تعرف أن معظم أطباء سافارى يسكنون فى الضلع القصير من حرف L الذى بنيت عليه الوحدة ، لكن هناك مساحة ممتدة تناثرت بها بيوت متواضعة من طابق واحد وأمامها حديقة صغيرة مثل بيتى أنا ، وبيوت فاخرة من طابقين لكبار الأطباء .. وبالطبع تحت تصرف الرجل سيارة رباعية الدفع فاخرة ، وأمام بيته حديقة غناء ..

فيما مضى كانت زوجته هنا ثم يبدو أنه طلقها أو انفصلا .. كـل الأمريكان مطلقـون أو منفصلون .. لا أعـرف التفاصيل ولا تهمنىَ على كل حال ..

الآن يعيش الرجل وحده هنا ، وهناك خادمة أفريقية تعنى بالبيت .. هى فى الحقيقة عاملة بالوحدة .. وهناك طاه صينى يعد له الطعام ، وهذا الطاهى يعد الطعام لعدة بيوت فاخرة من هذا الطراز . لا أحد يأكل لقمة من خارج طعام سافارى الردىء ، باستثناء جماعة المحظوظين هذه .. وبالطبع أتحمل أنا ثمن طعامى الذى ابتاعه من الخارج وتعده برنادت ..

الحق إن وحدة سافارى تتعامل بنظام طبقى فعلاً .. هناك سادة وهناك عبيد .. الشخص الوحيد الذى أعرفه ويأبى أن يلقى معاملة خاصة هو المدير نفسه ... بارتلييه يعمل كالحمار ويأكل طعامنا الردىء وينام فى غرفة صغيرة ..

قام شيلبى بإفراغ حقائبه ، ثم أخرج الكيس البلاستيكى الذى كان يموت قلقًا عليـه .. من الصعب أن يتحمـل الخزف هذه المعاملة العنيفة ..

قام بنزع الفوم والبلاستيك المغلف .. ثم بدأ يخرج التماثيل الصينية واحدًا واحدًا ..

من الغريب أن لهذه التماثيل ملمسًا باردًا منفرًا .. هذا شعور يصعب وصفه .. مثل .. مثل .. الآن يتذكر .. فى صباه أمسك بثعبان مرجان سام من عنقه فى منطقة صخرية من كولورادو ، وشعر متقززًا بذات الشعور .. شىء أملس بارد .. شىء غير مريح ..

كل تمثال يقبع الآن على ذلك الرف الخشبى الأنيق الذى قرر أن يضع التماثيل عليه .. إنهم فى وضع الجلوس فعلاً ، مع تلك الثياب الفاخرة وتعبيرات الوجوه المتباينة .. هذا عمل فنى رفيع فعلاً ...

لم يكن قد نزع ثيابه بعد ، لكنه صب لنفسه بعض الويسكى فى كأس وأسقط فيه الثلج ..

جلس أمام الكمبيوتر وفتح صفحة الجوجل ، ثم طلب بحثًا عن تماثيل الخزف الصينية + عبـــادة الأجـــداد . امتلأت الصفحة بالبيانات .. قرر أن يبحث بالصور فهى أسهل .. راح يستعرض عشرات الصور المماثلة لتماثيل صينية جالسة ، لكنه لم يجد تماثيل مشابهة بالضبط ...

هذه التماثيل أصلية أو ــ على الأقل ــ لا يتم صنعها بالجملة فى مصنع ما . أنت تعرف الصينيين . كل شىء يتم صنعه بالجملة حتى أنف حبيبتك .. لو كان هناك رجل مولع بجمع أنوف حبيباته فلسوف يكتشف مصنعًا صينيًا لا ينتج سوى أنوف الحبيبات .. لو كنت تريد قطعة قماش ملوثة بدماء جان دارك ، فلسوف تكتشف أن هناك مصنعًا صينيًا ينتج القماش الملوث بدم جان دارك ، ولسوف تجد من يستورد هذا القماش ليغرق به السوق ..

عدم وجود صور من هذه التماثيل على النت يوحى بأن قصتها حقيقية .

ما هى قصتها ؟

لا يعرف ..

ابتعد عن الرف وتأمل المنظر .. بدا له رائعًا برغم كل شىء .. تحفة أصيلة تضاف إلى أقنعة الماساى ورماحهم التى يعلقها فى نفس الغرفة .. فقط يجب أن يقوم بتوزيع بعض الإضاءة ..

جلب الكاميرا والتقط لها عدة صور من عدة زوايا ..

راضيًا عن نفسه غادر الغرفة .. وبدأ ينزع عن نفسه الثياب ويتأهب لدوش طويل يزيل عنه عناء السفر ..

غريب جدًا أن يعيش المرء يومًا واحدًا وهو ليس آرثر شيلبى .. هذه تجربة مريعة فعلاً .. لو لم يكن هو شيلبى لانتحر .. لا شك فى هذا ...

راح يراقب قطرات الماء المنحدرة على جسده فى المرآة ، ومسد على شعره الأشيب .. خطر له أنه بلا شك وسيم جدًا .. الشيخوخة تزيده جاذبية .. لشد ما خسرت زوجاته السابقات الكثير ..

وعندما نام بعد هذا الحمام المنعش زارته صورة تماثيل الأباطرة تلك عدة مرات ..

استيقظ فى الفراش ونظر إلى الضوء الخافت خارج غرفة النوم ، وخطر له أنه سيكون شيئًا مرعبًا لو رأى واحدًا من هؤلاء الأباطرة يطل برأسه من خارج الغرفة الآن .. هناك أشياء مفزعة ، لكن التفكير فيها قد يكون أكثر إفزاعًا من تحققها ..

فضل أن ينقلب ويدير ظهره للباب وينام ..



* * *

ظلت هذه التحف حية ثلاثة أيام ..

لاحظ أن الخادمة بلهاء نوعًا وتتعامل بخرق شديد ..

كان شيلبى فى هذا الوقت فى وحدة سافارى يناظر بعض حالات كالا آزار ، عندما راحت تنظف الغرف .. دخلت غرفة مكتبه وهى تجر المكنسة الكهربية ..

إنها بلهاء .. لا تنس هذا ..

ولأنها بلهاء فهى تشغل المكنسة الكهربية وترقص على الضوضاء الصادرة منها ، ولأنها بلهاء فهى تدور حول نفسها بلا رشاقة . ولأنها بلهاء فهى تنزع حذاءها لتجيد الحركة على الموكيت ..

إنها تلوح بعصا المكنسة .. إنها تتجه نحـو رماح الماساى وتتخذ وضع الرامى الخبير .. ثم تعـود لتنظف المكتب بقطعة قماش مبتلة ..

ولأنها بلهاء فهى لا تلاحظ أن عصا المكنسة تمسكت بالرف .. والرف معلق بشكل واهن ..

بلهـاء !

هكذا سقط الرف بما عليه على الأرض ، وتهشم كل شىء ..

استغرقت فترة طويلة حتى تدرك المصيبة التى حدثت وتستوعبها .. هناك قطع خزف فى كل مكان .. لقد تهشم كل تمثال إلى ألف قطعة ، وعليها أن تدرك هذا ..

كالعادة راحت تسب وتلعن .. لا أحد يضع هذه التماثيل الهشة على رف .. لا أحد يضعها فى مكان خطر كهذا إلا لو كان مخبولاً ..

وكانت تعرف أن شيلبى سيكون عصبيًا جدًا ولن يقبل أعذارها . فليكن ما يكون .. هو يدفع لها مبلغًا من المال .. فليتوقف عن دفعه . ماذا بوسعه أن يفعل غير ذلك ؟.. لن يشنقها أو يأخذها إلى السجن ..

هكذا قامت بكنس ما هشمته ووضعته فى كيس بلاستيكى .. لم تتخلص من التماثيل لأنها خشيت أن يسألها عنها ..

أمامها ساعات عصيبة فعلاً إلى أن يعود . ربما كان عليها أن تنظف الشقة بعناية أكبر فقد يشفق عليها .. إن الأخطاء تحدث فى كل مكان ..



* * *

بالفعل شعر شيلبى بأن الخسارة قاسية فعلاً ..

كان ثريًا وثمن هذه التماثيل لم يكن فادحًا ، لكنه لن يجد مثلها أبدًا .. هذه هى المشكلة ..

وقد ظلت الخادمة تنظر له مستدرة عطفه كأنها ضبع جريح .. بل إنها نجحت فى أن تخلق قطرات من دمع تسيل على خديها ..

لم يعرف ما يقول ولا كيف يتصرف ..

راح يتأمل الحطام ويمسك بقبضته قطعة تلو أخرى ..

ثم خطر له أن يحاول لصق هذه القطع . إنها عملية معقدة شاقة لكنها مسلية وتحتاج إلى صبر وذكاء . بالطبع سوف تكون النتيجة النهائية غاية فى القبح والبشاعة ، لكنه سيكون فخورًا بها .

قال للخادمة :

ـ « لا أعرف ما أقول لك .. لكنى لن أعاقبك على كل حال فكلنا نفس الشخص .. »

ثم طلب منها أن تجلب له جريدة وتضعها على المنضدة . جاء بمصباح قوى سلطه على الحطام ثم بحث فى حاجياته حتى وجد

أنبوب مادة لاصقة قوية ، فجاء به وفتحه .. الجزء الأول من العمل هو أن تجمع أشلاء كل تمثال وحدها .. ثم تحاول تذكر كيف كان التمثال قبل الكسر ..

لحسن الحظ أنه التقط بعض الصور لهذه التماثيل عندما كانت سليمة .. فقط عليه أن يطبعها على طابعة الصور الفوتوغرافية التى اشتراها حديثًا من سنغافورة ..

ـ « هـــا .. آيـــد ... أن .. آخـــار ؟ »

لم يفهم ما قيل من وراء كتفه فاستفهم :

ـ « هـــم م ؟ »

ـ « هل يريد السيد شيئًا آخر ؟ »

كانت تسأله ولم يكن لديه مزاج للمزاح ، لذا قال لها فى غيظ ودون أن يلتفت :

ـ « الخدمة الكبرى التى تقدمينها لى هى ألا تحطمى شيئًا آخر ، وهذا يعنى أن الرحيل خير ما تفعلين الآن .. »

انصرفت وهى تسبه من تحت أنفاسها ، على الطريقة التى نسميها نحن (برطمة) .. لم يبد لها الأمر مهمًا بهذا الشكل كما

أنها كانت تــرى أن التماثيل قبيحة فعــلاً .. لا تُستحق عناء استعادتها من جديد .. ربما كان عليه أن يوجه لها الشكر ..

ومن خلفها وفى ضوء المصباح جلس الطبيب الأمريكى العبقرى يحاول استعادة التمثال الأول ..

10 ـ مـرض غامض ..

فى القرية التى تقــع على بعــد خمسة كيلومترات من وحدة سافارى بدأت أحداث غريبة تقع ..

فى البداية لاحظ (فيليب ماجوبا) أنه ليس على ما يرام ..

ماجوبا كما تعرفون بناء يبيع قوته لمن يريد .. هناك مقاولون يعرفون من أين يأتون بهؤلاء الرجال الأقوياء ، ومن ثم تصل الشاحنة ليقفــز هــؤلاء إلى صندوقها الخلفى . رجــال حفاة بفانلاتهم الداخلية وعضلاتهم التى لا يملكون سواها للبيع .. عدة الشغل لدى كل واحد من هؤلاء فأس يحمله فى كل مكان . وفى نهاية النوم يبتاع لأسرته بعض الخبز والخضر والشاى ..

ماجوبا صحا من النوم مرهقًا ..

عندما جلبت زوجته الكاسافا لم يقدر على الأكل ، ثم أفرغ معدته جوار جدار . قــال لها إنه غير قادر على الأكل ولن يقدر على العمل اليوم ..

عندما جاء الرجال ينادونه للحاق بالشاحنة قال لهم إنه مريض ..

هؤلاء القـوم يعملون يومًا بيـوم ولا يملكون مدخرات على الإطلاق . عندما يتعطل يومًا عن العمل فهو الجوع له ولأطفاله .. هذه هى القاعدة .. لا توجد ثلاجة بها بعض الأطعمة تكفى يومين أو شىء من هـذا القبيل .. مثـل رسام يفقـد بصره أو عازف تشل يده ..

نام على الأرض جوار الكوخ وقال لزوجته أن تجلب له بعض الماء فهو محموم ..

يجب أن يشفى بسرعة .. إنه فى مأزق حقيقى ...

★ ★ ★

عند المساء ساءت الأمور أكثر ..

لاحظ أن عينيه ملتهبتان .. ولاحظت زوجته أنهما حمراوان تمامًا يسيل منهما الصديد . وكانت العقد اللمفاوية متضخمة فى

عنقه .. أصابته نوبات متعـددة من الإسهال ثم بـدأ يسعل بلا انقطاع ..

عندما جاء الصباح كان فى حال سيئة جدًا .. طلب منها أن تنادى الرجال ليساعدوه للذهاب إلى المستشفى ..

ـ « المستشفى بعيد .. »

ـ « أتحدث عن تلك الوحدة .. الوحدة التى تضم أطباء مختلفى الجنسيات .. لا أذكر اسمها .. »

أذكركم أنا أن اسمها وحدة سافارى .. ويقال إن أطباءها بارعون حقًا ..

لابد أنهم قادرون على أن يعيدوك على قدميك يا ماجوبا .. قادرون على أن يعيدوك لتعمل كما كنت .

لا يعرف إن كان قد سمع ما سمعه أم خيل له ذلك ..

قيل له أو قالها أحدهم .. جاره (يوناما) مريض جدًا .. يبدو أنه لا يستطيع التنفس ..

بمناسبة التنفس .. هو فعلاً غير قادر على التنفس .. الأمر عسير جدًا .. تحول صدره إلى صخرة صماء لا يدخلها الهواء ولا يخرج منها .. هذا غريب . فقط هو قادر على السعال ..

الآن بدأت الأمور تختلط ..

حرارته ترتفع .. رفاق الصبا يظهرون ويرحلون وهناك حيوانات مفترسة جدًا تحيط بالقرية .. شلالات تتفجر ولكنها لا تتدفق بالمـــاء بل الثعــابين ، ومن مكان ما يهبط القديسون ليصلوا على روحه قبل أن ترحل .. هذا يصيبه بالذعر ..

العرق يسيل .. يبلل كل شىء ..

زوجته تجفف العرق ..

جاره مريض ؟.. هذا غريب ...

هل يقدر على استعادة قواه ؟.. الأسرة .. الأسرة ..

سوف تبيع الخضر وربما تبيع نفسها .. الأطفال سوف يجوعون .. هو لا يملك ترف أن يمرض .. لابد من أن يفيق ويستعيد قواه بأى ثمن .

هناك فى وحدة سافارى كان هناك عدد من الأطباء .. بعضهم من أهل بلده . قاموا بفحصه .. ثم نقلوه إلى قسم الأشعة حيث تم التقاط عدة أفلام لصدره .

بعد هذا وجد نفسه فى الفراش فى عنبر الأمراض المعدية ...

كان فى حالة مضطربة بين الحلم والواقع .. أحيانًا يعتقد أن الشىء حدث ثم يكتشف أنه حدث فى خياله ، بينما كانت أشياء حقيقية تقع فلا يعيها .. مثلاً لا يذكر بتاتًا أنهم ركبوا له قناة وريدية وبدءوا ضخ المضادات الحيوية والسوائل فى وريده .. فقط فتح عينه الحمراء للحظة فرآها ..

فى الوقت نفسه كان د. جابرييل وهـو نيجيـرى مختص بالأمراض المعدية يلاحظ الصورة العامة .. كانت محيرة فعلاً .. التهاب فى العين مع التهاب رئوى .. هذا قد يشير لأدينوفيروس adenovirus .. لكن هذا الأخير يهاجم عينًا واحدة فقط .. عقد لمفاوية ؟.. إسهال ؟.. التهاب رئوى شديد ..

هذه الصورة تجمع عدة أمراض معًا .. ما معنى هذا ..

الكابوس الحقيقى بدأ عندما وصلت ثلاث حالات مماثلة من نفس القرية .. بعض الحالات كانت أقرب إلى التيفويد وبعضها كان أقرب إلى الالتهاب الرئوى .

لا أحد يتحسن .. هناك شىء غريب ..

مع المساء أدرك أن الأمر أكبر منه ..

هذا وباء كما هو واضح .. وباء اجتاح تلك القرية الصغيرة ، وهو غير قادر على تسميته على كل حال .. لا يعرف وباء يعطى هذه الصورة على قدر علمه ..

اتصل بنائب المدير باركر .. هذا يشبه أن تطلب الشيطان لمساعدتك .. لا أحـد يحـب أن يقحـم باركـر فى أى شىء ، لكن عليـك أن تتحمـل ما سيحدث لك لو تجـاوزته فى السلم الإدارى ..

ـ « سيدى .. أنا أشك فى وجود وباء يجتاح قرية مجاورة لسافارى .. »

قال باركر فى غضب :

ــ « هذا كلام غير مسئول أيها الشاب .. »

قال جابرييل وهو يتنفس بعمق :

ــ « سيدى .. من الأفضل أن أكون مخطئًا .. أنت تعرف القاعدة : لا يمكن أن تكون حذرًا أكثر من اللازم .. »

فكر باركر قليلاً ثم أصغى للتفاصيل .. وضع السماعة وطلب استدعاء البروفسور آرثر شيلبى ..

★ ★ ★

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل ، عندما ظهر شيلبى الأمريكى المتبختر .. كان يلبس سترة أنيقة وقد فتح قميصه ليظهر شعر صدره الأشيب الذى تتوسطه قلادة ذهبية ، وكالعادة كان يدخن سيجارًا غليظًا .. لا أحد يجسر على أن يطلب منه أن يطفئ السيجار هنا ..

كان يمشى وحوله ثلاثة من أطباء المناطق الحارة المنبهرين به دومًا ..

ــ « بحق السماء !... إنها ليلة مجيدة !.. »

دوى صوته العالى ليوقظ النائمين فى كل مكان ، وراح يلقى الدعابات ويقرص الممرضات .. باختصار لم يكن الأمر يختلف عن إعصار يجتاح الوحدة .. والكل يبتسم ..

كنت أنا هناك فى قسم الأمراض المعدية لأن عملى هناك هذا الأسبوع .. فلما رأيته نهضت محييًا .. هتف لما رآنى :

ــ « هذا هو الأب العبقرى لأجمل طفلة فى العالم .. أنا لم أرها لكنها بالتأكيد جميلة .. ما اسمها ؟ »

قلت اسمها لم يصغ كالعادة .. كان يفتش فى جيبه عن شىء ، ثم أخرج لى سيجارًا غليظًا فى علبة من القصدير وصاح :

ــ « سيجار المولود .. هذه عادتنا .. »

ــ « لكنى لا .... »

ــ « إذن تعلم بسرعة قبل أن تشيخ وتعجز رئتاك .. أين هذا المريض ؟ »

كان فيليب ماجوبا فى الفراش جواره ، وقد تدلت من ذراعه خراطيم لا بأس بعددها أبدًا .. وكانت عيناه الآن ثمرتى طماطم ناضجتين .. أما عنقه فتضخم جدًّا جدًّا ... وكان يئن بلا توقف .. أما عن وعيه فمن الواضح أنه فى عالم آخر تمامًا .. هذه حالة delirium كاملة كما يعرفها الأطباء ..

ــ « يا للسماء !.. ما اسم هذا المرض ؟ »

ــ « لا نعرف .. »

ــ « لأنكم جهلة .. »

قالها فى استمتاع برغم أنه هو نفسه أقر أنه لا يعرف اسم المرض ، ووقف يصغى لما يتلوه عليــه د. جابرييل من علامات حيوية وملاحظات .. مد يده يتفحص ساق الرجل .. استوقف شىء ما عينيه فراح يمرر إصبعه عليه ثم قال :

ــ « هل لاحظت هذا ؟ »

قال جابرييل فى غباء :



ـ « لا .. مجرد بثرة ملتهبة .. »

ـ « هذه بؤرة صديدية تقرحت .. الأوعية اللمفاوية تخرج منها كما ترى .. نحن نتكلم عن لدغة حشرة !.. »

احتشدت العيون حول المريض .. بالفعل لم يلحظ أحد هذا ... لكن ما معناه ؟

قلت أنا متوقع أن يهنئنى على عبقريتى :

ـ « هل تعنى يا سيدى أنها حالة ليشمانيا وأن هذه لدغة ذبابة الصحراء ؟ »

ـ « لا .. الأعراض عنيفة وغريبة جدًا .. أريد عمل مزرعة دم لهذا المريض .. هل بدأت المضادات الحيوية ؟ »

ـ « بالطبع .. »

كان هذا مما يثيـر جنونه .. لا يتحمل أن تعطى مضادات حيـوية بلا تشخيص ، دعـك مـن أن هذا يعطل عمل مزرعة الـدم .

مضغ السيجار فى حسرة ، بما معناه (خسارة !) ... ثم قال وهو يتفحص عنق المريض :

ـ « هـل تريـدون رأيى ؟.. الأمـر يذكـرنى بحـالات التولاريميا !.. »

★ ★ ★



11- تولاريميا هنا ؟

كان الكلام عن التولاريميا Tularemia هنا ضربًا من الجنون .. حتى أنا أعرف أن هذا المرض لا يظهر إلا فى نصف الكرة الشمالى . البلاد الإسكندنافية .. روسيا .. كندا .. تنقله بكتريا تدعى فرانسيسلا تولارنسيس ..

أنت تعرف جو بابا نويل والغزلان التى تجر الزحافة عبر الفضاء قادمة من اللاب لاند شمال فنلندا .. هذا جو مثالى لانتشار التولاريميا . لا شك أن بابا نويل يصاب بهذا الداء كل عام . المرض الذى ينتقل بلدغة القراد والتعامل مع الفراء واللحوم الملوثة .. المرض سوف يذكرك بالحمى المالطية (بروسللا) جدًا لكنه أكثر قسوة ..

ثم أنه ينتقل بالقراد على الأرجح ..

لا تتكلم عن تولاريميا هنا من فضلك يا دكتور شيلبى .. هناك قواعد مقدسـة فى علم الأوبئة .. مثـلاً لا تتكلم عن الحمى الصفراء فى آسيا ولا عن حمى الدنج فى أفريقيا .. لا تختر بلدًا قضى على البعوض ثم تتكلم عن الملاريا .. إلخ ..

لكن الرجل كان مصرًّا على رأيه ..

قلت له محاولاً ألا أبدو متشككا وقحًا :

ـ « إذن كيف نثبت هذا ؟ »

قال وهو ينفث سحابة دخان كثيفة :

ـ « هناك اختبار مناعى لذلك .. لكنه غير موجود هنا بطبيعة الحال .. يجب أن نطلبه من أطلانطا .. »

ـ « هذا يستغرق الدهر كله على ما أظن .. »

قال مفكرًا :

ـ « من الممكن أن نجرب العلاج الأمبريقى . أى العلاج الذى لا يستند إلى تشخيص واضح .. لو كانت هذه تولاريميا فلسوف يشفيها الستربتومايسين خلال عشرة أيام .. »

هكذا هرع د . جابرييل يوقف المضادات الحيوية ويضيف حقن ستربتومايسين . هذا مضاد حيوى مأمون ورخيص نسبيًّا ما لم يصبك بالصمم طبعًا ..

كنت أفكر فى أن نزعة الاستعراض عند شيلبى تجعله يتخطى حدود الممكن أحيانًا .. يريد أن يبهرنا .. وهناك احتمال لا بأس به أن يشفى المريض بالصدفة على هذا العلاج .. سوف نعتقد أن السبب أن شيلبى عبقرى ..

قال شيلبى :

ـ « هنا نعتبر المريض محظوظًا لأن الصورة العامة غريبة وملفتة .. هناك أنواع من التولاريميا تشبه التيفود بالضبط وبالتالى يستحيل أن تشخصها .. »

على كل حال يجمع شيلبى بين البراعة والحظ الرائع ، ولهذا قل أن تفشل توقعاته ..

لكن ماذا عن باقى الحالات التى بدأت تتوافد علينا ؟

★ ★ ★

فى الصباح البـاكر جـاءت ممرضـة نمساوية إلى مكتب د. جابرييل وكانت تحمل شيئًا ملفوفًا فى منديل ورقى ..

لم تتكلم كثيرًا .. أفرغت المنديل على المكتب فتساقطت منه قرادة مكتملة النمو تثيـر إعجاب الناظرين . كانت شبه ميتة ..

أى أن أطرافها كانت تتحرك فى ثقل ، وبرغم كونه طبيبًا فإن جابرييل لم يستطع قط أن يعتاد منظر هذه المخلوقة البشعة .. شعر بالشعر ينتصب على جلد ساعديه .. نظر لها فى دهشة ثم سألها (أعنى الممرضة وليس القرادة طبعًا) :

ــ « من أين جئت بها ؟ »

ــ « من فراش ذلك الرجل الذى يدعى (فيليب) .. الرجل الذى كان البروفسور شيلبى يناظره . ليس من المعتاد أن نرى مرضانا يحملون القراد فى ثيابهم .. لابد من إبلاغه .. »

اتسعت عيناه وسط وجهه الأسود وقال :

ــ « سأفعل .. »

ثم فتح شاشة الكمبيوتر الموجودة أمامه .. فى الماضى كنت تحتاج إلى مرجع فى علم الحشرات الطبية تقضى معه ليلة سوداء . اليوم صار الأمر أقرب للعبة ..

بحث تحت كلمة (قراد) .. بدأت الصور تظهر أمامه وهو ينظر للقرادة الميتة من حين لآخر .. كان من السهل أن يجد القرادة المتهمة .. كان اسمها (إكسودس) ...

ابتسم وقال بصوت خافت :

ــ « إكسودس .. القرادة التى تنقل مرض التولاريميا .. هذا العجوز بارع فعلاً ! .. »

لكن المشكلة لم تحل بعد .. كيف ظهرت هنا وماذا تفعله فى أفريقيا الاستوائية ؟.. كيــف تنقــل مرضًا يعرف الجميع أنه لا يظهر إلا فى نصف الكرة الشمالى ؟ هل هى قرادة جاهلة ضلت طريقها ؟.. هل اعتمدت على جهاز GPS تالف ؟..

ألغاز عديدة .. لكننا على الأقل نعرف اسم المرض ..

عندما دخل العنبر أدرك بوضوح أن العلاج الجديد بدأ يجدى ..

خمس حالات تتحسن بالتأكيد ، وقد جلس المرضى فى الفراش وراحوا يتبادلون الكلام بالبانتويد كأنهم لم يكونوا مرضى قط ...

هذه كانت حالات تولاريميا .. لا شك فى هذا ..

★ ★ ★

وفى مكتب بارتلييه ساد الصخب والشجار ..

كانت رءوس كبرى هناك ، وكـــان المدير قد طلب أن أتواجد لأننى رأيت الحالات منذ البداية .. بالطبع حضرت لكنى آثرت الصمت تمامًا .. رحت أرقب حرب الديناصورات هذه فى رعب .. لغة الشجار هى الفرنسية كالعادة فأنت تعرف أنها اللغة الموحدة أو (لينجوا فرانكا) بين هؤلاء جميعًا ..

قال بارتلييه بصوت جهورى جعل الشحم يترجرج فى لغده العظيم :

ـ « صمتًا !!.. »

هنا نهض أحد أساتذة الوبائيات .. طبيب نمساوى اسمه (شميت) .. وقال :

ـ « هذه ليست تولاريميا .. علينا أن نبحث عن مرض آخر ، قبل أن نصير أضحوكة فى عالم الطب .. »

قال شيلبى فى كبرياء :

ـ « كل الملابسات تشير إلى التولاريميا ، ولن نلغيها من الوجود لمجرد أن هذا يروق لك !.. »



كانت هيلجا الشمطاء طبيبة المختبر موجودة فنهضت لتقول فى حماس :

ــ « لن نطلق نظريات من دون مختبر .. على أن أجرى المزارع اللازمة .. حتى ذلك الحين سوف نكتفى بالصمت .. »

اعترض شيلبى :

ــ « نترك وباء كهذا يجتاح قرية ولا نبلغ وزارة الصحة ؟ »

ــ « لابد من أن يكون إنذارنا صادقًا .. »

كان بارتلييه يفكر .. أعرف هذا عندما يبدأ العبث فى أنفه كأنه ينقب عن كنوز بداخله .. ثم بدأ يعبث بإصبعه الصغير فى أذنه مما جعلنى أدرك أنه على شفا فكرة مهمة ..

قال بعد قليل :

ــ « التولاريميا مرض مفضل فى الحرب البيولوجية .. مثله مثل الجمرة الخبيثة (أنثراكس) .. فهل يمكن أن يكون هناك من يلعب لعبة الحرب البيولوجية هنا ؟ »

قال شميت العصبى دومًا :

ــ « كلام فارغ يا موريس .. حرب بيولوجية فى الكاميرون ؟.. ولمصلحة من ؟.. لا أحد يلعب ألعاب الحرب البيولوجية اليوم .. آخر الحروب التى استعملت فيها الجراثيم هى الحرب العالمية الأولى .. »

كنت أعرف أن هذا غير صحيح .. الإسرائيليون سمموا آبار الفلسطينيين بالتيفود أكثر من مرة ، وكانت القوات الأمريكية تقصف معاقل الكوريين بجراثيم الحمى المالطية (البروسللا) .. لكنى بالطبع سأظل صامتًا حتى لا تلتهم هذه الديناصورات حلقومى ..

قال شيلبى مستمتعًا بأن يثير غيظ شميت :

ــ « الحرب البيولوجية لم تتوقف قط .. منذ أعوام ظهر جاسوس روسى فار إلى الغرب اسمه (أليبكوف) ليؤكد أن الشركة السوفييتية بيوبريبارات المؤسسة عام 1973 هى فى الحقيقة مسئولة عن تطوير برنامج عملاق للحرب البيولوجية . بالذات وباء الجدرى باستخدام فيروس معملى مطور اسمه (إنديا 67) . من الصعب معرفة أية أقطار تحتفظ بفيروس

الجدرى حتى اليوم ، لكن الأمريكيين يشكون فى روسيا بالطبع والصين وباكستان وإسرائيل وكوريا الشمالية .. »

قال بارتلييه فى هدوء :

ــ « أنتم معشر الأمريكان تحتفظون فى مركز CDC بأطلنطا بكميات كبيرة مـن فيروس الجـدرى ... الله وحـده يعلم لأى غاية .. »

قال شيلبى غير مبال بالملحوظة الأخيرة :

ــ « كان هناك برنامج نشط فى جنوب أفريقيا اسمه (كوست) وهو متخصص فى تطوير جرثومة جمرة خبيثة لا يجدى معها لقاح ولا علاج . طور هؤلاء العلماء كذلك جيناً أخذوه من بكتريا (كلوستريديام برفرنجنس) التى تسبب داء غنغرينا الغاز ، وزرعوه فى بكتريا إى كولاى واسعة الانتشار . إذن نحن نتكلم عن وباء غنغرينا يجتاح المجتمع ، و بالطبع مع زوال حكومة الأبارتهيد فإن ترسانة الحرب البيولوجية هذه معروضة لمن يدفع أكثر .. »

قالت هيلجا :

ــ « هل تعرف ما أفكر فيه يا شيلبى ؟ »

قال بطريقته الفخور :

ــ « ماذا ؟ بنس لأفكارك .. »

ــ « أفكر فى أن أحطم أنفك .. »

وفجأة اندفعت قبضتها القوية كأنها المنجنيق فى أنف الطبيب الأمريكى ..



12- ستة تماثيل ..

أعطانى شيلبى المفتاح ثم استند إلى الباب وهو يضع يده على رأسه ..

لقد صار أنفه مربوطًا بشكل كوميدى كأنه القط توم فى فيلم رسوم متحركة . لولا مأساوية الموقف لسقطت على الأرض ورحت أتلوى ضحكًا ..

كنت أعرف كذلك أنه ممثل بالفطرة وعلى قدر من الهستيريا .. لو عبّرنا بالعامية لقلنا إنه (بيتدلع) ، لذا لم يكن من الطراز الذى يكتم ألمه .. بل سيظهره بقوة وفى كل الظروف ..

واضح طبعًا أننى تطوعت لأوصله لمسكنه بعد العلقة التى تلقاها ..

فتحت الباب واقتدته للداخل ...

كانت ثانى أو ثالث مرة أدخل فيها مسكنه ، وقد بدا لى أنيقًا ومرفهًا جدًا .. يصعب تخيل أن هذا المكان فى أنجاوانديرى وفى وحدة سافارى بالذات ..

جلس على أريكة مريحة ثم مد يده وتناول قطعة ثلج بماسك ألقاها فى الكأس .. ثم صب لنفسه بعض الويسكى . هذا ويسكى (على الصخور) كما يقولون ..

ــ « هل أنت واثق من أنك لا تريد كأسًا ؟ »

كان السؤال تحصيل حاصل طبعًا لأنه يعــرف أننى لا أقرب الخمر ، لكنى على كل حال وجدت علبة مياه غازية فتحتها وجلست أمامه ..

قال لى فى تعب :

ــ « هل رأيت تلك المخبولة وما فعلت ؟.. أنا أسمع أن هيلجا مفترسة لكن ليس لهذا الحد .. »

تجشأت من الصودا ثم قلت :

ــ « سيدى .. لا يوجد إنسان فى وحدة سافارى عنفت به هيلجا وأساءت معاملته مثلى .. هناك كيمياء غامضة من الكراهية بيننا ، وبرغم هذا لم أرها قط تستعمل اليد أو تستعمل اللسان بشكل يتجاوز الحد .. »

ــ « إذن هى جنت .. »



بدأت أعد على أصابعى :

ــ « أولاً بروفسور جيديون يأتى ليهنئنى بالمولودة ثم يلكمنى ويلقينى أرضًا فى بيتى .. ثم الطبيب اليابانى المهذب يوسع عامل المصعد ضربًا بلا سبب .. أبراهام ليفى وغد لكنه متزن .. فجأة يضرب رأسه فى الجدار حتى يدميه .. ثم توجه لك هيلجا لكمة أثناء مناقشة علمية رصينة .. هل كل هذا طبيعى ؟ هل هناك فيروس جنون ؟ »

قال شيلبى وهو يمرر مذاق الشراب فى فمه :

ــ « بالطبع لا .. لكن الحميات التى تنهك الجسد والجهاز العصبى تسبب حالة خرف Delerium شديدة .. التيفوس والطاعون يسببان الجنون دائمًا .. »

ــ « وهل كان أحد هؤلاء محمومًا ؟.. أنت تعرف أن الإجابة هى لا .. »

ــ « لاحظ أننا مررنا بحالة جنون جماعى منذ زمن .. أعتقد أن احتمال التلوث قائم .. »

رحت أفكر فى عمق .. لماذا الانتقائية إذن ؟.. حالات الجنون كثيرة لكنها ليست أكثر من اللازم لو كنت تفهم ما أعنيه ... لو كان هناك تلوث لقابلنا عشرين حالة على الأقل ...

كانت هيلجا قد تصرفت ككل الحالات السابقة .. اعتذرت بشدة وقالت إنها لا تعرف كيف فعلت ذلك .. وكالعادة لا يعرف المدير هل يفصلها أم لا ..

وكالعادة أوقفها مؤقتًا عن العمل .. أرجو أن نجدها قد شنقت نفسها فى غرفتها فهذا سيكون لطيفًا منها .. لماذا لا يتصرف الذين نكرههم بلطف وتهذيب وينتحرون ؟؟؟

★ ★ ★

دعانى شيلبى إلى غرفة مكتبه ..

كانت فرصة ممتازة لأننى لم أر عالم هذا الرجل من الداخل إلا فى مرات محدودة . ربما تجده مسليًا أو سمجًا لكن لا تنكر أنه تجربة مهمة تستحق الدراسة .. بالإضافة لهذا كانت العلقة التى تلقاها قد جعلته أكثر هشاشة وأقل ادعاء . باختصار بدا صديقًا لطيفًا ...

وكنت أحلم فعلاً بأن أرى مكتبة هذا الرجل . أى كتب صنعت هذا العلم الغزير ؟..

هكذا دخلنا إلى غرفة صغيرة ضيقة بها رماح أفريقية على الجدار مع بعض أقنعة .. هناك عدة أرفف بها كتب طبية .. مراجع شهيرة لكنها لم تكن بالحجم المرعب الذى تصورته ..

هناك مكتب صغير عليه جهاز كمبيوتر وعدة صور فى أطر لنساء يضحكن . لابد أنهن زوجاته أو حبيباته ..

أقاوم شعورًا قويًا بأننى أتكلم مع بينوكيو . هذا الأنف لا يمكن إلا أن يكون لبينوكيو بعد كذبة فاضحة ..

هنا رأيت على المكتب أجزاء من تماثيل محطمة وأشلاء وأنبوب مادة لاصقة .. يبدو أنها تماثيل من التراث الصينى ..

رأى نظرتى الفضولية فقال :

ــ « هذا يحتاج لتركيز عال وأنا مهتز . حتى الرؤية عسيرة بسبب هذه الضمادات .. »

ــ « فهمت ... إذن فى الولايات المتحدة يبيعون تماثيل مهشمة عليك لصقها .. على طريقة اللغز Puzzle الشهيرة ؟ »

ضحك كثيرًا ثم قال وهو يجرع ما بقى فى الكأس :

ـ « لا .. ابتعت هذه التماثيل فى الولايات ثم حطمتها الخادمة الحمقاء .. على كل حال قد نالت جزاءها .. »

لم أفهم .. رأى نظراتى الغبية فقال :

ـ « قبل الاجتماع عرفت أنها مريضة جدًا .. إنها تسكن فى ذات القرية المنكوبة ، ويبدو أن العدوى انتقلت لها .. إنها فى قسم الأمراض المعدية الآن ولعلك رأيتها لكنك لا تعرفها .. »

ـ « معنى هذا أن تنظيف البيت صار حلمًا مستحيلاً .. »

ـ « الحل الوحيد هو أن أبقى كل شىء نظيفًا بانتظار عودتها .. »

ثم أشار إلى مقعد جوار المكتب وقال :

ـ « هـلا جربت حظك ؟.. أحـاول أن أعيـد ترميم هـذه التماثيل .. »

قلت فى ذهول :

ـ « هل تمزح ؟.. هذا مجهود لا يوصف .. وحتى لو تم فسوف تكون النتيجة قبيحة جدًا .. »



ـ « صدق أو لا تصدق . هذه تسليتي الآن .. »

هكذا وجدت نفسي متورطًا في هذه العملية المملة . جلست إلى المكتب وقررت أن ألصق قطعتين لا أكثر ثم أفر .. لن أمضي ليلتي في هذا الهراء .. ثم إنني مشتاق للعودة لسارة الصغيرة كي أمارس هوايتي المفضلة في دغدغتها ..

كانت بقايا تماثيل صينية متقنة .. أعرف هذا الجو وأعرف أنها على الأرجح أصلية وأن هناك هاوي تحف سوف يؤكد لك أنها تخص أسرة (منج) أو شيء من هذا القبيل .. آخر أباطرة المانشو .. إلا لو كان المانشو يابانيين فقد اختلط الأمر في ذاكرتي ..

بدأت أقوم بالعمل .. كان صعبًا لكني ميزت أن لكل نبيل من النبلاء الذين تصورهم التماثيل حلة لها لون مميز .. هذا يقرب الأمور .

وضع أمامي صورة ملونة للتماثيل قبل الكسر فصار الأمر أسهل ..

هناك عبارة مكتوبة بحروف صينية على ظهر التمثالين اللذين كانا أقرب إلى الاكتمال .. نفس العبارة تتكرر ، لكن الملاحظ أن

هناك عبارة أخرى كتبت بقلم (ماركر) أسود لا تمت للخزف بصلة ..

كان الفضول يغلبنى فأخرجت قلمًا وورقة وقلدت بعض هذه العبارات تقليدًا غير بارع ، لكنه مقروء ..

بعد ساعة طلبت الإذن بالانصراف وكانت عيناى قد تقرحتا وظهرى قد تحطم .

قال لى إنه ممتن لأننى ساعدته ..

يتحدث بلهجة درامية كما يتحدث من يموتون فى الأفلام : اتركونى هنا .. لقد انتهى أمرى .. سيروا أنتم نحو الأفق ونحو النور الساطع هناك .. فقط تذكرونى للأبد .. وداعًا ..

هذا الرجل ممثل شكسبيرى ضل الطريق فدخل كلية الطب ...

★ ★ ★

على سبيل المجاملة الرقيقة فوجئت فى الصباح بزيارة غير متوقعة من د . ماى فاى لين طبيبة التوليد الصينية التى ولّدت برنادت . كانت قادمة لتطمئن على مريضتها وابنتها .. هذه مجاملة عظمى خاصة أنها لا تترك وحدة سافارى أبدًا ..

ــ « صباح خير .. جئت لطبيبة برنادت .. جرح .. جرح عميق .. »

كنت كعادتى لا أتمالك نفسى من الابتسام كلما تكلمت .. أجدها ظريفة فعلاً .. ثم أنها تتكلم بطريقة الأجراس الصينية إياها وتحدث صخبًا يكفى عشرة أشخاص .. ثم هى لا تشيخ .. شعيرات بيضاء هنا وهناك لكنها تبدو كطفلة وضعت رأسها فى دقيق .. لا أكثر ..

دعوتها للدخول وناديت برنادت ..

جاءت برنادت ترتدى بيجامة أنيقة وهى تحتضن الطفلة . لن يكون هناك فحص طبعًا بل الأمر لا يتجاوز المجاملات على غرار : كيف حالك ؟.. شكرًا .. دعك من أنها قامت بفك مشابك الجرح أصلاً ..

خاطر مزعج راودنى : متى ستأتى اللحظة السريالية المجنونة التى تجن فيها د . ماى فاى لين وتخطف الطفلة من قدميها لتهشم رأسها فى الجدار ؟ ...

لم أستطع إبعاد الوسواس عن خاطرى لذا جلست على بعد متر واحد منها متأهبًا للهجوم ..

صينية ..

مشكلة هؤلاء أن لغتهم صعبة و ...

كان هناك شىء صينى مماثل .. بالفعل ..

تذكرت .. التماثيل لدى شيلبى . ما هو المكتوب عليها يا ترى ؟.. هذه صدفة ممتازة ...

أخرجت الورقة من جيبى وقلت لها :

ــ « هل يمكنك تفسير هذه الكتابة ؟ »

أمسكت بالورقة وضحكت ضحكة خجولاً تدل بالطبع على سوء خطى .. ثم راحت تقرأ الكلمات ..

ــ « المكتوب هنا .. كازاى ماشتا .. »

ــ « ما معنى هذا ؟ »

مطت شفتها السفلى وقالت بطريقتها المهشمة :

ــ « لا معنى لها .. هــذه اسم .. اسم يابانى على أرجح .. »

ثم تفحصت اسمًا آخر وقالت :



ــ « أوجونو شاميرو .. هذا اسم يابانى .. فعلاً يابانى هو .. »

أعتقد أن هذا هو ما كان مكتوبًا بقلم الماركر .. لكن ماذا عن النقوش فى الخزف نفسها ؟

قرأت المكتوب ثم قالت :

ــ « هذا كلمات مخيف .. مخيف كلمات .. أين وجدت أنت هذه كلمات ؟ »

13- الأمور تتعقد ..

يمكن أن أبسط لك ما قالته الطبيبة الصينية .. الكلمات التى نقشت على الخزف تقول :

« حبيسة هنا هى روح الشيطان الذى يجلب السقم والوباء . فليحترس من يمسك بهذا الوعاء .. »

قالت لى إنها عبارة تتكرر فى الثقافة الصينية القديمة .. قلت لها إنها تتكرر فى التراث الأدبى العالمى .. هل تذكر أسطورة صندوق بندورا الذى سجنت فيه الشرور ؟.. هناك دومًا صندوق لا يجب فتحه . لكنها لم تفهم كلامى . عادت تكرر :

ــ « هذا وعاء .. لا تفتح .. لا تفتح .. »

ثم جمعت أشياءها ورحلت ..

هناك أشخاص يكرهونك لأسباب لا تعرفها ، ويبدو أن ماى فاى لين قررت فجأة أننا وغدان . كأن هناك لعنة معينة تلاحقنا .. أثار هذا دهشتنا .. لقد تطيرت بسهولة تامة ..

عندما رحت أعيد التفكير فى كلامها بدت لى بعض نقاط مريبة ..



متى جاءت هذه التماثيل إلى الوحدة ؟ متى تهشمت ؟

متى بدأت حالات الوباء الغريبة فى القرية ؟

« حبيسة هنا هى روح الشيطان الذى يجلب السقم والوباء .. »

ما معنى هذا ؟

هل هذه التماثيل ملوثة بشىء ما ؟

إن الطب الصينى التقليدى متقدم وشديد التعقيد .. هذا شىء يعرفه الجميع .. ترى ما المدى الذى بلغه هؤلاء الأطباء حقًا ؟

خواطر مجنونة دارت فى ذهنى وقررت أن أنهيها على الفور .. ثم تذكرت ..

تذكرت منظـرى وأنــا جالس أمضى الساعات أدغدغ سارة الصغيرة وألثمها .. كنت عائدًا لتوى من جلسة طويلة مع تلك التماثيل المشئومة ..

ما الذى كنت أحمله وقتها ؟

هل كنت أجلب لها الأذى دون أن أدرى ؟.. تذكرت قصة (وداد) للدكتور سعيد عبده ، وهى قصة لا تفارق خيالى . كان طبيبًا شابًا فى مستشفى الحميات ، وتعرف على فتاة حسناء

اسمها وداد .. خرجا معًا وجاءت اللحظة التى تبادلا فيها بعض القبلات .. كان المستشفى فى ذلك الوقت مشغولاً فى مكافحة وباء الجدرى الذى اجتاح مصر فى ذلك الزمن . ثم اختفت وداد لفترة .. فى المستشفى دعاه طبيب أكبر منه لرؤية حالة شنيعة من الجدرى النزفى .. حالة لم ترها المستشفى من قبل . حالة مقضى عليها بالموت بلا استئناف . لما دخل على المريضة بدا له الوجه مألوفًا خاصة والفتاة تشيح بوجهها حتى لا يراه .. كانت عبارة عن كتلة لحم مشوهة نازفة لا يطيق مخلوق النظر لها . نظر للاسم فاكتشف أن اسمها وداد .. هى حبيبته ! .. ويقوم الطبيب بمحاولة الفهم .. متى وأين تعرضت لهذه العدوى ؟.. فترة الحضانة هى بالضبط الفترة التى كانا يتبادلان القبلات فيها !.. لقد كان يحمل العدوى بحكم عمله لكنه لم يصب بالوباء .. فقط نقلته أنفاسه للفتاة ... لقد كان هو قاتل وداد !!

طبعًا يمكن استخلاص حكمة أخلاقية من القصة هى ألا تقبل أى فتاة ليست زوجتك . وهى موعظة تناسب الأخلاقيين طبعًا ، لكن ما العمل لو كانت وداد هى ابنته الرضيعة التى يهيم بها حبًا ؟

وشعرت بقشعريرة شديدة ..

يجب أن أنسى هذه الهواجس ..



يجب أن أنسى التماثيل اللعينة وأتفرغ لعملى ..

★ ★ ★

لابد أن هذه كانت أسود أيام بارتلييه ..

الوحدة قد أصابها الجنون فعلاً ..

عنده تصرفات هياجية غير مبررة من جيديون واليابانى وهيلجا وليفى و .. ومن ؟.. لا أذكر .. لقد قرأت تحقيقًا أجرى مع الدكتورة هيلجا بشأن اللكمة التى وجهتها لآرثر شيلبى ..

سألها د . باركر عن سبب هذا التصرف فقالت :

ــ « لا أدرى .. للحظة بدا لى سخيفًا جدًا وشعرت بعدوانية هائلة نحوه .. لا أعرف السبب .. »

ــ « الناس لا تضرب بعضها بالقبضات لأن الآخرين يبدون سخفاء .. »

ــ « هذا ما كنت أعتقده حتى تلك اللحظة .. هل تسمح لى بالتدخين ؟ »

ــ « يمكنك هذا .. »

ثم سألها :

ــ « هل تحملين نحوه ضغينة ما ؟.. »

بالطبع كان الاتهام بالعنصرية قائمًا لكن أحدًا لم يجسر على أن يوجهه . هل تكرهينه لأنه أمريكى وأنت ألمانية ؟.. ربما لديك ميول نازية معينة ..

قالت :

ــ « علاقتى به ممتازة فعلاً .. اسمع .. لا أعرف لماذا فعلت ذلك فلا تضيع وقتك .. أعتقد أنها حالة جنون وقتى .. لا أعرف هل تعود أم لا ، ولا أعرف إن عادت فمتى .. باختصار لو كنت مكانك لأنهيت تعاقدى .. هذا واجبك .. »

قال لها :

ــ « نحن نرغب فى الفهم أولاً يا بروفسور .. »

أما عما دار مع ليفى اللعين فى قسم الأمراض العصبية فكان بسيطًا .. هو لم يؤذ أحدًا سوى نفسه . قال :

ــ « شعرت بأن رأسى سينفجر وأن هناك من يسيطر عليه .. شيئًا آثمًا كريهًا . أنت تعرف ذلك الشعور عندما تكتشف أن

هناك صرصورًا يزحف وسط شعرك فتجن وتضرب رأسك فى الجدار لتقتله .. حتى لو هشمت الرأس نفسه .. »

تشبيه لا بأس به .. إن الوغد يجيد التعبير . هناك قصص عجيبة حقيقية تمامًا عن رجال كانوا يحفرون خنادق .. أحدهم وجد حية على ساقه فنسى نفسه وهوى عليها بالفأس ليبتر ساقه . هناك رجال فقئوا عيونهم لأن دبورًا كاد يلمسها ..

نحـــن المصريين نلخص الموقف بـــ (ساعة القضا يعمى البصر) ..

كان بارتلييه كما قلت فى حالة معنوية سيئة جدًّا ..

أما ما زاد الطين بلة فهو قرية أخرى قرب وحدة سافارى بدأت تعانى مرضًا غامضًا حتى اللحظة ..

هناك قىء وإسهال وارتفاع فى الحرارة ..

بدأت الحالات تصل إلى وحدة سافارى .. وبدأنا نفحصها ..

كان من الواضح تمامًا أنها حالات تيفويد .. المزارع بينت هذا بوضوح . وقد بدأت الوحدة على الفور تنفيذ البروتوكول الخاص بانتشار وباء من التيفويد .. وهذا يتضمن اللقاح وفحص مصادر

المياه فى القرية والبحث عن حاملى العدوى .. إلخ .. مهمة معقدة تستغرق بعض أيام ..

لكن يظل السؤال المهم هو : لماذا الآن ؟

★ ★ ★

كنتَ غارقًا فى أفكار سوداء ..

لكنى لسبب لا أفهمه وجدت نفسى فى المساء أخبر برنادت إننى سأخرج قليلاً ، وهو طلب غريب .. كانت ترضع سارة ، وهى تعرف أن سارة تمثل لى لعبة طريفة ابتعتها من المتجر ولا أطيق تركها .. ربما مع الوقت أتعلم ذلك لكن ليس الآن ...

خرجت فى هواء الليل الفاتر قليلاً ..

أرى أضواء الكشافات فى حديقة وحدة سافارى الممتدة ، ومن بعيد أرى البناية الرئيسة تتألق فى الظلام .. أشعر بفخر لكونى جزءًا من هذا الكيان .. أعتبر نفسى جزءًا مهمًّا كذلك ... لقد كانت حياة لا بأس بها وقمت بأشياء مهمة .

مشيت ويدى فى جيبى حتى بلغت دار شيلبى الفاخرة .. عبرت مدخل الحديقة وسيارته الواقفة هناك ثم دققت الباب . بالطبع لم

آت طبقًا لموعد لكن الأمريكان أبسط فى التعامل من البريطانيين .. هم قادرون على خـرق القواعد ، وقادرون على فهم سلوك الجنسيات الأخـرى .. أقـر لهم بهـذا .. بينما البريطانيون يفترضون أن على كل مخلوق أن يكـون بريطانيًا أو يتصرف مثلهم ..

دققت الباب فسمعت أغنية لإلفيس بريسلى من الداخل ..

انفتح الباب فرأيت شيلبى بمنظره الجديد المضحك ، وكان يلبس مريولة المطبخ ويداه ملوثتان بالعجين ..

هتف لما رآنى :

ــ « أنت سعيد الحظ أيها الشاب .. الليلة سوف تدرك أن اللازانيا ليست اختراعًا إيطاليًا .. الأمريكان يفعلون الأشياء أفضل .. »

قلت له إننى آسف لقدومى من غير موعد ، لكن خطر لى أن أسأله عن تلك التماثيل .. التماثيل الصينية التى بدأ يرممها ..

ــ « هل تعرف أصلها ؟.. »

ــ « بالطبع لا .. هى ثمينة وهذا كاف .. »

أخبرته بالعبارة المكتوبة على التماثيل فضحك وقال :

ـ « ثق فى كلامى .. كل تمثال من حضارة شرقية كتبت عليه كلمات كهذه .. هؤلاء القوم يعلقون أهمية مبالغًا فيها على ما يصنعون .. »

ساد الصمت بعض الوقت ثم قررت أن ألقى سؤالى السخيف :

ـ « هل تعتقد أن هذه التماثيل كانت تحوى جراثيم ؟ وأن هذه الجراثيم تحررت عندما تهشم التمثال ؟.. لاحظ أن الخادمة التى حطمت التماثيل هى نفسها مريضة !.. »



14- بودرجا يعرف الكثير ..

كانوا ينتظرون فى الظلام ..

الأنفاس محتبسة والتوتر شديد .

لو وجدهم أحد الحراس لكان تفسير موقفهم عسيرًا ، وهذا يعنى أنهم .. أنهم ...

لوح الأول بنصل سكين التمع فى الضوء الخافت .. هذا يعنى أنه لو وجدهم حارس هنا فلسوف يتم قتله .

دقات على الباب ..

هرع أحدهم إلى الباب ونظر عبر العدسة الكاشفة ، ثم همس فى ارتياح :

ــ « هذا هو (أوزاكا) .. لقد حان وقت البدء .. »

لقد اكتمل أعضاء الوحدة 731 من جديد .. يمكن البدء على الفور . أنت تعرف حب اليابانيين للعمل ونشاطهم ودأبهم ..

غدًا تأتى الخطوة الأخطر ، لكن بعد ما يحصلون على الصناديق الزجاجية الخاصة ..

★ ★ ★

كان شيلبى يعد اللازانيا وينثر عليها الجبن .. ويثرثر بلا انقطاع ..

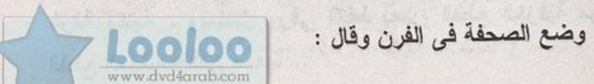
لم نكن قد تجاوزنا هذا الحاجز من قبل ، وأزعم أننى لم أقترب منه قط لهذه الدرجة .. هذه أيام غريبة فعلاً . أنا فى مطبخ آرثر شيلبى ..

قال دون أن ينظر لى :

ــ « أنت تربط بين الأحداث ربطًا زمنيًا متعسفًا .. تعتقد أنه ما دامت الأوبئة بدأت مع قدوم التماثيل فهى السبب .. هذا كلام فارغ طبعًا . ثم أن لديك دليلاً ماديًا مهمًا : أنا بخير حال ولم أصب بأى مرض برغم أننى أكثر من تعامل مع تلك التماثيل .. »

ــ « ربما أخذت الخادمة الجرعة كلها .. »

وضع الصحفة فى الفرن وقال :



ــ « بنى .. دعنا لا نخرق القواعد العلمية .. هناك علم كامل اسمه علم الأوبئة ، وهذا الذى تقوله لا يفسر انتشار الوباء فى قرية .. فى الواقع هناك وباءان من نوعين مختلفين .. لابد من وسيلة انتشار ولابد من جرعة عالية وحسابات معقدة .. ثم أنك تحتاج لبكتريا متحوصلة قادرة على البقاء عدة قرون ما دمت تفترض أن أباطرة الصين هم من فعلوا هذا .. »

كلامه منطقى طبعًا ولا أقدر على نفى حرف منه .

لكن هذه التماثيل لا تريحنى .. بالفعل أشعر أنها مرتبطة بما يحدث .. مرتبطة بقوة ..

قلت له متوسلاً :

ــ « هل تسمح لى باختبار بسيط ليطمئن قلبى ؟ »

ــ « تريد أن تحلل بعض هذه البقايا ؟ »

ــ « بالتأكيد .. »

غسل يده وجففها جيدًا ، ثم تناول علبة بلاستيكية واتجه إلى غرفة مكتبه . وبمنديل ورقى التقط بعض القطع الخزفية من القطع المهشمة التى جمعها ..

قال لى وهو يضعها فى العلبة :

ـ « لا أعتقد أننى قادر على إرجاع هذه القطع لمكانها .. خذها وجرب حظك .. سوف تحاول البحث عن بكتريا فراسنيسلا تلارنسز وسالمونلا .. »

قلت فى ثقة :

ـ « وسوف أجدها .. »

ابتسم فى سخرية ، ثم دعانى لالتهام قطعة لازانيا معه .. طبعًا لا أملك شهية كافية ، ولا أثق بطهيه أبدًا ، ثم أن اللازانيا لا تناسب الذوق المصرى فى رأيى ..

هكذا اعتذرت وغادرت البيت حاملاً كنزى الصغير ..

★ ★ ★

قالت دكتورة مارى جيلفورد المختصة فى علم الميكروبات ، وهى تتأمل العينة :

ـ « سأجرب كل شىء .. لا تقلق .. لكن امنحنى وقتًا .. »

ـ « لا أملك إلا الوقت .. خذى منه ما تريدين .. »

ضحكت وفتحت الحضانة وبدأت تخرج بعض أطباق بترى ..

كنت واقفًا أنتظرها حتى تنتهى .. نظرت للأرض ..

هناك رماد مسحوق متناثر فى رقعة صغيرة .. أقرب لرماد سيجار سقط أرضًا وداسته الأقدام . غريب هذا .. لا يسمح بالتدخين هنا ، كما أن من يعملون هنا نساء ..

ملحوظة بسيطة عابرة لم أهتم بها فى ذلك الوقت ..

كنت أفكر فى الظفر والعودة لشيلبى لأخبره بأننى وجدت القطع الخزفية تعج بالبكتريا .. الكمين الذى نصبه أباطرة الصين منذ قرون فلم يقع فيه إلا شيلبى نفسه ..

شكرتها وغادرت المختبر ومشيت فى الممر الطويل الذى يقود لقسم الجراحة .

هنا وجدته أمامى .. الأفريقى الثرثار الظريف الذى يعرف كل شىء ويتظاهر بمعرفة الباقى .. خبير القبائل ومترجمنا المعتمد .. بودرجا ..

حييته فى حرارة .. أحب هذا الرجل فعلاً وأجد رفقته نوعًا من الترف ..

كـــان يلبس سروالاً أبيض واســعًا ويدس قدميــه فى صندل من البلاستيك الأصــفر . يلبس قميصًا مشــجرًا واسعًا ويعتمر قبعة غريبة تشبه (البيريه) .. وبالطبع كان يتصرف بذلك الطابع العــام مــن الكبرياء والغرور .. طريقة تذكرك بطريقة الفنان (عبد السلام النابلسى) وبالتالى هى تجعله قريبا لقلبك وتجعل غروره ظريفًا ...

لكنى لاحظت أنه قلق مهموم ..

قال لى وهو ينظر حوله :

ــ « هناك لغز يحيط بهذه الوحدة يا دكتور .. أشعر أن نهاية العالم دانية .. »

هذا رجل حساس ذكى إذن ..

ــ « وما يدعوك لهذا الظن ؟ »

ــ « أشياء غريبة تحدث .. تحدث ليلاً على الأرجح .. »

ثم واصل النظر حوله ، وجذبنى من يدى لنبتعد .. كان يريد الكلام فى العراء كما هو واضح ..

لما بلغنا حديقة الوحدة حيث كانت الحركة صاخبة وسيارة الإسعاف تنزل حمولتها ، بينما طابور من المرضى يقف بانتظار دوره ..

قال لى وهو يشعل لفافة تبغ :

ــ « هناك من يتسلل إلى المختبر ليلاً .. مختبر الميكروبات الذى كنت أنت فيه .. »

ــ « ولماذا ؟ »

مط شـفته السفلى فى عدم فهم .. لا يعـرف .. هو يتجسس فقط ..

أضاف :

ــ « تستمر الأضواء الخافتة مضاءة بالداخل طيلة الليل .. لاحظت هذا عدة مرات .. »

ــ « ولم تبلغ الأمن لأنك تريد استغلال هذه المعلومة .. كل عمل يتم خلسة يمكن الاستفادة منه .. إن المعلومات تباع أليس كذلك ؟ »

قال فى صدق :

ــ « أبلغت رجلى الأمن المسئولين عن الليل فلم يهتما .. قالا لى أن أنسى الأمر .. »

وهذا يعنى أنهما مرتشيان على الأرجح .. لكن لماذا لم تبلغ سلطة أعلى يا أخ بودرجا ؟.. لأنك تخشى أن تخبر المدير بشىء كهذا وتورط نفسك . بالنسبة لك أنا هو السلطة الأعلى الأمر مفهوم ..

من المتسللون إذن ؟.. هل تنوى ذكر أسماء ؟

وقف جوار شجرة وأسند ظهره لها وقال :

ــ « حســن .. لم أتبيــن ســوى البروفسور جيديون .. د. أبراهام ليفى .. ربما د . هيلجا .. لا أذكر من أيضًا ! .. »

ــ « كم عددهم ؟ »

حك رأسه ونفث سحابة دخان كثيفة فى وجهى ، ثم قال :

ــ « عددهم ستة ! .. »



15ـ الوحـدة 731 ..

الليلة سوف نتسلل إلى قبر مصاص الدماء ..

سوف نفتح التابوت ونغرس وتدًا فى قلبه ولربما قطعنا رأسه وحشونا فاه بالثوم .. حسب التساهيل كما نقول ..

كنت ألبس حذاء من المطاط لكنى ارتديت المعطف بالطبع . عدم التنكر هو خير طريقة للتنكر ..

وعنـدما جاءت الساعة الحـادية عشر مساء كنت هناك فى الغرفة الملحقة بعيـادة تخطيط الدماغ ، وهى غرفة صغيرة لا تنغلق أبدًا ..

غادرت الغرفة فى حذر فوجدت بودرجا بانتظارى .. مشينا معًا إلى نهاية الممر ثم انعطفنا لليسار ؛ وهناك كانت فرجة جانبية تتيح لك أن تكمن هناك فى الظلام وتراقب .

لا أحد يعمل فى مختبر الميكروبيولوجى ليلاً . فقط تظل الحضانات ساهرة .. وتهـدر الثلاجات . حيـاة البكتريا موحشة وقاسية فعلاً ..

ظللنا واقفين بعض الوقت ، ثم بدأت أدرك أن الرجل صادق ..

رأيت أبراهام ليفى اللعين بقامته المميزة قادمًا من نهاية الممر عكس اتجاهنا .. رأيته ينظر حوله فلا يرانا طبعًا ، ثم يدق الباب بطريقة معينة .. دقة .. دقتان .. دقة .. هذه شفرة لا شك فيها ..

من الداخل جاء صوت .. بالطبع يسأل عن القادم ، فقال :

ـ « شاميرو .. »

هنا انفتح الباب .. وغاص بالداخل ..

بعد قليل ظهر جيديون من مكان ما بمشيته المتثاقلة وقامته المحنية . وتكررت الطقوس .. لا أذكر الاسم الذى قاله على كل حال ..

الآن تذكرت :

« هناك رماد مسحوق متناثر فى رقعة صغيرة .. أقرب لرماد سيجار سقط أرضًا وداسته الأقدام . غريب هذا .. لا يسمح بالتدخين هنا ، كما أن من يعملون هنا نساء .. »

مصدر هذا الرماد هو سيجار جيديون طبعًا ..

كان هذا كافيًا .. الخطوة التالية هى أن تقتحم المختبر عليهم .. هذا مستحيل طبعًا . التقرير لن يكتمل إن لم تعرف ما يفعلونه بالداخل لكن هذا عسير ..

هكذا أشرت إلى بودرجا وابتعدنا ..

كنت أفكر ونحن نخرج إلى الحديقة المظلمة بالخارج فى معنى هذا ..

طبيب باثولوجى .. طبيبة مختبر .. طبيبا أمراض عيون .. طبيبا ميكروبات .. ما معنى هذا كله ؟ . لاحظ أنهم جميعًا ــ أو تقريبًا ــ ممن أصيبوا بنوبات هياجية ..

قال بودرجا راجفًا :

ــ « هناك عاملان بالوحدة يعملان معهم .. يطلبون منهما فئران ويطلبون حشرات وأشياء غريبة .. بالمناسبة .. قائد الهليوكوبتر يعمل معهم .. »

فعلاً لا أفهم . الأمر يفوق قدرتى على التخيل أو الاستنتاج ..

★ ★ ★

فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى اتصلت بى د . مارى جيلفورد ، وكان صوتها يشرق عبر أسلاك الهاتف .. لأسباب كهذه وقع طه حسين فى حب مى زيادة عندما سمع صوتها . هذا صوت يشبه صنارة تقتنص القلوب ..

قالت لى :

ــ « هلم .. أنا أراقب المزارع كلها .. »

ــ « طبعًا وجدت ضالتك .. »

ــ « لا .. بالعكس .. العينات التى جئتنى بها نظيفة .. لا توجد بها بكتريا .. أو بعبارة أدق : لا توجد بها بكتريا مسببة للسقم . أنت تعرف أن البكتريا توجد فى كل مكان من حولنا ، لكن لم أجد بكتريا ممرضة .. »

كان هذا خبرًا غريبًا .. لا يتفق مع استنتاجاتى ..

التماثيل نظيفة ..

إذن ما معنى هذا ؟..



لعل التماثيل لا علاقة لها بالقصة بتاتًا .. لكنى كنت أشعر بالعلاقة قوية بشكل ما .. ستة تماثيل وستة متسللين .. القصة بدأت بعد تهشم التماثيل ..

لابد من تفسير أفضل .

وضعت سماعة الهاتف وأنا غارق فى التفكير ..

كنت فى عيادة الأمراض المعدية ، وكان جهاز الكمبيوتر جوارى على المنضدة .. مددت يدى وفتحت برنامج جوجل .

الأسماء التى رأيتها على التماثيل كانت ــ كما ترجمتها لى الطبيبة الصينية ــ أسماء يابانية .. هل يوجد مكان تجتمع فيه هذه الأسماء ؟

طلبت البحث عن كازاى ماشتا + أوجونو شاميرو .. بالطبع كنت أعتمد على السمع لذا جربت أكثر من هجاء للاسمين . فهل تكتب أوجونو مثلاً بحرف O أم حرف U ؟ ... وجدت موقعًا يعرض الأسماء اليابانية بالهجاء اللاتينى فبحثت عن أسماء شبيهة ..

بدأ جوجل العجوز يؤدى عمله ..

هناك ملايين الـ (كازاى ماشتا) وملايين الـ (أوجونو شاميرو) .. لكنك لن تجد سوى أماكن محدودة تجمع الاسمين ...

كان عنوان المقال الأول يحمل اسم (الوحدة 731) ...

للمرة الأولى أجد هذه المعلومات عن الوحش المدعو شيرو إيشى الذى أقنع الحكومة اليابانية بان الصين لديها سلاح بيولوجى ، وانه لابد لليابان من السبق فى هذا المجال قبل أن تهزمها الصين . هكذا تم تجميع أفراد الوحدة 731 ...

الوحدة 731 التى كانت تتظاهر بأن عملها تنقية مياه الشرب قرب منشوريا ، لكنها فى الواقع كانت تعمل فى دأب لتطوير الأسلحة البيولوجية (الجمرة ــ التولاريميا ــ الطاعون) . وقد قامت الوحدة بعمل تجارب على أسرى أمريكيين وصينيين ، ثم بدأت تجرب إلقاء البراغيث على القرى الصينية . لقد تسببت فى قتل 200 ألف ضحية تقريبًا .

بعد الحرب أعدم معظم فريق الأطباء الوحوش الذين كانوا مع شيرو إيشى ، أما هو فقد ظفر بالعفو مقابل أن يعلم الأمريكان ما يعرف . الفريق يحوى عدة أسماء منها (كازاى ماشتا)

و(أوجونو شاميرو) . هناك طبيب اسمه أوزاكا وطبيب اسمه شاميرو و ..

أين سمعت اسم شاميرو هذا ؟

سمعته منذ يوم .. وكان من يحمل هذا الاسم هو أبراهام ليفى عندما كان يتسلل للمختبر ..

الآن أدرك بوضوح أن للتماثيل علاقة بهذا ..

الأسماء موجودة على التماثيل .

هذه أسماء الفرق 731 .

التماثيل تنذر بوباء ..

الأسماء يستعملها الأطباء الذين تغيرت طباعهم ..

التماثيل نظيفة بلا بكتريا ...

إذن ؟

★ ★ ★

كان الوقت عصرًا عندما دخلت إلى مختبر الميكروبات ..

كانت لى عينات بالداخـل ، وكانت د. مارى جيلفورد تعمل هناك .. مشغولة جدًا ولم ترتب فى شىء . لا أحد يسرق مختبر ميكروبات ولا يوجد ما يشد الانتباه ، لذا تركتنى أعبث كالطفل فى المزارع والحضانات .. فقط طلبت منى أن أكون حذرًا ..

كانت هناك غرفة جانبية مغلقة .. لا يعرف إلا الله ما فيها ..

سألتها عما يوجد فى هذه الغرفة ، فقالت ببساطة :

ــ « ليس المفتاح معى .. إنه مع د . سباريسكى .. أعتقد أنه يجرى ورقة بحثية لا يرغب فى أن تسرق منه . .. »

سألتها :

ــ « هل هذه الغرفة واسعة ؟ »

ــ « جدًا .. توشك أن تكون مختبرًا آخر .. يجلبون حيوانات وحشرات وحاويات .. لا أعرف طبيعة عملهم لكنه مثير .. »

رحت أراقب الباب فى نهم .. نصف مملكتى مقابل فتح هذا الباب ..



طبعًا د. سباريسكى واحد من هؤلاء المتسللين ليلاً ...

هكذا حملت شكوكى وحيرتى واتجهت إلى حيث يقوم آرثر شيلبى بجولة على العنابر .. يفضل ألا يرتدى المعطف ليبدو غريبًا متميزًا ..

ـ « هل لى فى نصف ساعة معك يا د . شيلبى ؟ »

نظر لى فى دهشة .. إننى صرت ودودًا هذه الأيام ، ويبدو أنه شعر بأنه أزاح حاجز الكلفة أكثر من اللازم وهو سيندم على هذا الخطأ .. لكنه رفع حاجبيه بمعنى أنه يسمح لى ..

قل ما تريد ..

قلت وأنا أنظر حولى :

ـ « ليكن حديثنا على انفراد .. »

هكذا جلسنا معًا فى حديقة وحدة سافارى حيث الشمس الحارقة توشك على أن تذيب رأسينا ، لكنه على الأقل مكان لا يسمعك فيه أحد .. أشعل سيجارًا وراح ينتظر أن أقول شيئًا ..

قلت له :

– « هل سمعت عن الوحدة 731 المختصة بالحرب البيولوجية ؟ »

قال فى ضجر :

– « طبعًا أيها الشاب .. لا تعتقد أن طبيبًا أمريكيًّا لا يعرف هذا .. طبيبًا مختصًّا بطب المناطق الحارة كذلك .. »

قلت :

– « أعتقد أن الوحدة 731 تمارس عملها فى وحدة سافارى .. هنا والآن !.. »



16ـ الوحـدة 731 (من جديد) ..

لك أن تتصور ما قاله لى شيلبى بعد ذلك ..

هذا طبيب يكلمه عن تماثيل تحمل عدوى .. ثم يكلمه بعد أيام عن الوحدة 731 اليابانية التى عادت للحياة .. لقد جن الجميع فعلاً ..

قلت له فى صبر :

ـ « سيدى .. »

ثم تذكرت أن أسوأ حالاتك .. الحالات التى تقنع الكل أنك مجنون ، هى الحالات التى تحاول فيها نفى ذلك عنك .. أنت تبدو متخبطًا وتفقد كل مصداقية ..

قلت بتؤدة :

ـ « سيدى .. لو سمحت لى أن أشرح .. »

وهكذا رحت أقص عليه القصة كلها من البداية .. وحشد الشكوك الذى يجتاح ذهنى ..

لما فرغت من قصتى قال شيلبى مفكرًا :

ــ « لا أصدق حرفًا أيها الشاب . لكن أوافقك على أن وراء هذه التماثيل لغزًا .. وإننى لراغب فى معرفته . سوف أتصل بصديق صينى فى الولايات ، وهو سوف يخبرنى بالتفاصيل .. »

★ ★ ★

عندما جاء المساء اجتاز (جون شيانج) مدخل متجر التحف الصينية ..

دق الجرس الرقيق المعلق على الباب ، وفى الداخل كانت العجوز الصينية تنتظر .. رائحة البخور تفعم الجو وتجعل التنفس والرؤية عسيرين ..

تبادلا التحية .. عندما يتعامل صينيان فإن طريقة الشك والتحفز تتلاشى .. التفاهم تام ، والكلام بلغة الماندارين التى لا أفهمها ..

فقط هو سأل عن شىء ما ، ثم قدم لها صورة .. الصورة التى وصلته بالبريد الإلكترونى من د . شيلبى ، وفيها ستة تماثيل ابتاعها من متجرها منذ فترة ..

هزت المرأة رأسها فى فهم ..



قال لها الصينى إن هناك مشكلة حقيقية فى بقعة أخرى من العالم .. التماثيل تهشمت لكن المشكلة تتفاقم ..

هكذا بدأت المرأة تتكلم ..

★ ★ ★

كان الخطاب الذى تلقاه شيلبى عجيبًا ..

أصابه الذهول التام ..

هذه التماثيل كانت تمثل الانتقام الصينى من الأرواح الشريرة التى جلبت الوبال وقتلت آلاف الصينيين . أبو هذه العجوز رأى أولاده يموتون بأوبئة قاتلة فى حرب لا ضرورة لها على الإطلاق .. وكان من (الشامان) البارعين وساحرًا قويًا .. بلغت كراهيته لليابانيين حدًا لا يوصف ..

الانتقام الذى لا يمكن تصوره أو تصديقه تلخص فى ملاحقة أرواح هؤلاء السفاحين اليابانيين الذين أعدموا ، وحبسها فى هذه التماثيل ولصقها .. كتب على كل تمثال اسم الروح الحبيسة فيه .. (كازاى ماشتا) .. (أوجونو شاميرو) .. (أوزاكا) ... (شاميرو) .. إلخ ... .

كانت له طقوس معينة لتعذيب هذه الأرواح كل يوم . ولما مات أوصى بالتماثيل لابنتـه التى هاجـرت إلى الولايات المتحدة ...

لم تكن العجوز تصدق هذه القصة ، لذا قررت التخلص من هذه التماثيل فى أقرب فرصة . كانت تخافها وبدت لها فكرة الخلاص منها والحصول على بعض المال فكرة ممتازة ..

اشتراها ذلك الأمريكى الأشيب .. ولم تعرف أنه سيأخذ التماثيل معه إلى الكاميرون ..

قلت لشيلبى وهو يقص على القصة :

ــ « التماثيل كانت تحوى الوباء فعلاً .. ليست جراثيم الوباء بل أرواح هؤلاء السفاحين خبراء الأوبئة .. »

كان مذهولاً يشعر بأنه من السخف التام مواصلة الكلام فى هذا الموضوع ، أما أنا فقد واصلت الاستنتاجات :

ــ « تهشمت التماثيل وهكذا تحررت الأرواح الست .. وراحت تبحث عن وعاء بشرى تحل به .. »

ــ « ولماذا لم تهاجمنى أنا ؟ »



ـ « على الأرجح هى انتخبت شخصيات تحمل طبيعة معينة أو لا مبالاة بالنفس البشرية .. أعرف أن هذه الصفات تنطبق على واحد على الأقل .. بالإضافة لهذا لديهم خلفية طبية واضحة .. ما كانت لتجد مكانًا أفضل ..

« لقد كانت هذه الشخصيات ـ الضحايا ـ تشعر بالسيطرة وتحاول التحرر من الروح الشريرة ، وهذا الهلع كان يتمثل فى جنون هياجى أو عدوانية زائدة ..

« لكن الشر انتصر فى النهاية وتكونت أول وحدة للحرب البيولوجية فى سافارى .. أبراهام ليفى يحمل اسم شاميرو على فكرة .. أعتقد أنهم كونوا مختبرًا جيدًا فى الوحدة فى تلك الغرفة الواسعة المغلقة ، ولابد أنهم حصلوا على ثياب واقية . أول تجربة كانت ناجحة جدًّا وهى نقل التولاريميا إلى القراد ثم نثر هذا القراد فى قرية كاميرونية صغيرة .. التجربة التالية كانت التيفويد .. »

قال شيلبى من جديد وهو يلوك السيجار :

ـ « أنا لا أصدق حرفًا أيها الشاب .. »

ــ « إذن هناك طريقة أكيدة للتيقن .. تفتيش الغرفة الموصدة .. وهذا يستدعى أن نخبر المدير بالقصة .. »

ــ « سيكون هذا صعبًا .. »

★ ★ ★

عندما تم اقتحام الغرفة الموصدة شعر الجميع بأنهم كانوا نائمين ثم أفاقوا ..

كان المكان قد تبدل تمامًا .. هناك أقفاص حيوانات وهناك أكثر من بذلة واقية مع عوينات لحماية العين . هناك محاقن .. هناك أنابيب اختبار .. هناك أقفاص زجاجية بها قراد وأقفاص بها فئـــران وقردان . لقـــد احتاج هذا المختبر إلى جهد جبار فعلاً ..

قال بارتلييه فى دهشة :

ــ « سوف نحتاج إلى أسابيع لفهم ما يدور هنا .. »

قلت له :

ــ « لا أعتقد أن الأمور بهذا التعقيد يا سيدى . لاحظ أنهم يتبعون تقنيات حرب بيولوجية عتيقة كان اليابانيون يمارسونها

منذ ستين عامًا .. لا يعرفون الكثير عن الأساليب الحديثة ، وبالتأكيد لا يعرفون معنى PCR وأبحــاث الجينات والحمض النووى . إنهم يريدون نقل التيفويد فيسكبون بعض أنابيب الاختبــار فى مجــرى ماء .. لنقل التولاريميا يلوثون بعض الحشرات ثم يلقونها على قرية .. أساليب ساذجة بسيطة .. »

كنا نتكلم ونحن نجول فى المختبر .

هنا فوجئت بدكتور سباريسكى البولندى ينظر لنا .. لم نلحظ قط أنه كان موجودًا منذ بدء الاقتحام .. كانت عيناه مجنونتين .. أدركت هذا على الفور .. إنه يمر بواحدة من تلك الحالات ..

فوجئت به يرفع صندوقًا زجاجيًا مغلقًا ثم يهوى به على الأرض ليهشمه ..

تناثر الزجــاج فى كــل مكــان لكنى لم أر ما كان يحويه الصندوق ..

هنا صاح شيلبى وهو يتراجع :

ــ « براغيث ! ... هنا يحتفظ بالبراغيث .. بالتأكيد تحمل جراثيم باستوريلا .. »

لم أفهم فقال وهو يجذبنى من يدى :

ــ « الطاعون يا أحمق . الطاعون ! .. »

وهكذا هرعنا إلى الخارج ونحــن نشعر بأن كل خلية فى أجسادنا تدغدغنا . هناك براغيث فى كل جزء من ثيابى الآن .. أريد أن أموت ..

لقد أراد الرجل أن يقتلنا بسبب هذا التدخل الوقح فى شئونهم .. هو الآن يلعب دور سفاح حرب يابانى ...

هنا صاح بارتلييه وهو يسد الطريق أمامنا :

ــ « لحظة .. لو تسربت براغيث فى ثيابنا فلا يمكن أن نغادر الغرفة لننشرها فى الوحدة . أرجو أن تنزعوا الثياب هنا واطلبوا فريقًا للتطهير .. »

هكذا وقفنا شبه عراة نرتجف .. وحاول سباريسكى الفرار من جوارنا لكنى وجهت له ركلة ممتازة فى بطنه .. تكوم أرضًا بعدها . من حسن حظى أنه فى منتصف العمر ومثقف نحيل .. هكذا هو أضعف منى بكثير ..

كانت العملية معقدة ، فقد كان المطلوب رش المبيدات أولاً ، ثم تطهير كل شىء ...

سيكون علينا جميعًا تعاطى المضادات الحيوية لفترة .. ربما يحتاجون إلى إعطاء لقاح لمعظم أفراد الوحدة ..

فى النهاية جلبوا لنـا ثيابًا خفيفـة معقمة تذكرك بالمناديل الورقية ، وسمحوا لنا بالخروج ..

هنا تذكرت شيئًا :

ــ « الهليوكوبتر !.. أين هى ؟ »

17– أوقفوا الكابوس ..

« حبيسة هنا هى روح الشيطان الذى يجلب السقم والوباء . فليحترس من يمسك بهذا الوعاء .. »

★ ★ ★

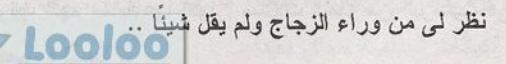
قال لى بودرجا بشكل عابر إن قائد الهليوكوبتر يعمل معهم .. يمكن تخيل ما سيحدث إذن ..

طلبت من بارتلييه أن يرسل معى رجلى أمن ، وهرعنا بثيابنا الورقية الخفيفة إلى حظيرة الطائرة .. هناك طائرتان عليهما شعار سافارى ، أحدهما فى حال سيئة جدًا ولا تعمل ، أما الأخرى فكانت مراوحها تدور الآن لكنها ما زالت على الأرض .. كانت تتأهب للإقلاع ...

وقفت على مسافة آمنة وصحت فى الطيار الأفريقى :

– « توقف .. »

نظر لى من وراء الزجاج ولم يقل شيئًا ..



قلت لرجل الأمن الذى جاء معى أن يشهر مسدسه . هذا عمل غير معتاد هنا لكنه فعله . صوبه على قمرة القيادة .. رسالة صامتة بليغة جدًا ..

بعد دقيقة أوقف الطيار عمل المراوح وترجل وهو بادى الدهشة والغضب ..

ظهر بارتلييه أخيرًا وهو يلهث وسأل الطيار عن حمولة الطائرة .. لم يرد ..

صعد رجلا الأمن إلى الطائرة وعادا ومعهما حاويتان كبيرتان من الزجاج .. يمكنك أن تدرك بسهولة أن هناك عددًا من البراغيث بالداخل .

رجال الوحدة 731 كانوا سيكررون أمجاد آبائهم ويلقون بهذه الحاويات فوق قرية بريئة .. كان الزجاج سيتهشم وتتحرر البراغيث وتهاجم البشر .. كارثة كانت على الأبواب ..

الغريب أنهم استطاعوا تكوين سلالات كاملة من البراغيث فى فترة قصيرة نسبيًا .. ...

يبدو أن اقتحامنا المختبر كان إشارة لبدء هذا الجزء القذر ..

يمكن القول إننا حاصرنا المشكلة لكن كيف يتحرر هؤلاء التعساء الذين صاروا من رجال الوحدة 731 ؟

★ ★ ★

أرسل شيلبى إلى صديقه الصينى يسأله عن طريقة إلغاء هذه اللعنة .. التماثيل تحطمت لكن ما فيها وجد مأوى آخر أكثر دفئًا وأمنًا ..

لابد من وقف اللعنة .. إن تحرر هؤلاء يعنى أن الانتقام لم ينفع .. إنهم يمارسون الإيذاء على نطاق واسع كما كانوا يعملون .. كأنهم ما زالوا أحياء ..

بعد يوم جاء رد الصديق الصينى :

ـ « اقتنعت المرأة وقد استعانت بشامانى من أصدقاء أبيها .. يقول إن عليك أن ترسل له شظايا التماثيل .. وهو سوف يحرر هذه الكيانات الحبيسة لتحلق بعيدًا .. »

قال شيلبى لى وهو يجمع الشظايا ويضعها فى طرد صغير :

ـ « بالطبع أرحب بالخلاص من هذه التماثيل .. لم أشعر قط بكل هذا الرضا لأننى فقدت مالى .. »

يقولون فى القصص إن عليك أن ترتاب فى الهدية التى يجلبها لك اليونانى ، وأنا أضيف أن عليك أن ترتاب فى التحفة التى يبيعها الصينى بثمن بخس ...

أرسل شيلبى الطرد وكان علينا أن ننتظر ..

سوف يتحرر هؤلاء وإلا فهم يمثلون خطرًا جسيمًا .. يتمتعون بخلفيـة طبيـة ممتازة ، ومن الخطر تركهم .. سوف يبدءون ذات المهمة القذرة فى أى مكان يذهبون له .. أرجو أن يتحرروا فعلاً ....

★ ★ ★

أين الرجل الذى بدأ هذا الكابوس ؟

أين شيرو إيشى ؟..

من تاشيرو الذى وجدوه مقتولاً فى فندق بتايلاند وماذا سرق منه بالضبط ؟ هل يعرف الرجل القتيل أشياء لا نعرفها نحن ؟ هل الحرب البيولوجية هى الحرب القادمة أم أنها ماض مخيف لا أكثر ؟

هذه أسئلة لا نبحث عن إجابتها هنا فى سافارى .

د. علاء عبد العظيم

أنجاونديرى





سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد

كى يظل حيًا وكى يظل طبيبًا



د. أحمد خالد توفيق

الوحدة 731

كان رأى العالم عمليًا جدًا وبسيطا : الانتقام شهوة بدائية لن تفيد أمريكا فى شىء .. أبقوا على حياة شيرو أيشى ولن تندموا أبدًا .. شيرو أيشى ليس مجرد يابانى عادى .. إنه الرجل الذى أسس الوحدة 731 التى كانت تتظاهر بأن عملها تنقية مياه الشرب قرب منشوريا، لكنها فى الواقع كانت تعمل فى دأب لتطوير الأسلحة البيولوجية (الجمرة - التولاريميا - الطاعون).

العدد القادم

إنهم يكذبون

1/1/013

الثمن فى مصر 500

وما يعادله بالدولار الامريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية